

مفهوم العقل

والحجة العقلية في القرآن عند أهل السنة والجماعة

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

د. أبو الفداء حسام بن مسعود



ترسيخ لليقين ورد الشبهات بالبراهين

تحت اشراف د / أبي الفداء حسام بن مسعود حفظه الله



رسالة في مفهوم العقل والحجة العقلية في القرآن

عند أهل السنة والجماعة



إعداد الدكتور

أبي الفداء حسام بن مسعود

المشرف العام على قناة إقناع

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله،

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)) [آل عمران : ١٠٢]

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)) [النساء : ١]

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)) [الأحزاب : ٧٠ – ٧١]

أما بعد، فما أكثر ما يتنازع الناس اسم العقل يختلفون في مسماه! وما أكثر ما لهم من أقوال وآراء في ذلك، تتفاوت فيما بينهم كما بين الأرض والسماء! فما يكون من كمال العقل عند بعضهم، يكون من نقصانه ومحض سفاهته عند غيرهم! وما أكثر ما اتهم أحكم البشر وأعقل الناس على الإطلاق، وهم رسل الله عليهم صلوات ربي وسلامه، بالسفاهة والجنون، ولا حول ولا قوة إلا بالله! والحق أن كمال العقل وسلامته وصحة نظره لا تحصل لإنسان إلا إذا سلمت نفسه من الأهواء والأمراض والميول الحاملة على رؤية الحق باطلا والباطل حقا! فإنه لا ينتفع بعقله من ظهر له السبب الكافي (عند كل عاقل سوي النفس) لحصول المعرفة بالحق في نفسه، ولكنه مع ذلك قد حمله هواه على رفضه والتنكر له والتذرع بكل ذريعة لصده وإبطاله، أو الإعراض والميل عنه وإهماله! وهذا من الفوارق المنهجية المهمة بين معنى العقل وحجة العقل عند أتباع المرسلين، ومعنى العقل وبرهانه عند أتباع الفلاسفة!

فالحق أنه ليس مفهوم العقل ودلالته في الإسلام مقصورا على البرهان القياسي أو النظري (العقلي) كما هو عند الفلاسفة والمتكلمين ومن لف لفهم ودار في فلكهم! بل إنه يدخل فيه – بالأصالة وعلى وجه الأولوية – الإقرار بما هو معلوم بالفطرة والبداهة دون حاجة إلى استدلال أو نظر، ويدخل فيه كذلك سلامة النفس من الأهواء المانعة من قبول الحق الظاهر ومن التسليم للفطرة والبداهة وما

تقتضيه! هذان القسمان من أقسام التعقل أو العمل العقلي (استحضار دلالة الفطرة ومعالجة أهواء النفس)، الذين هما أس العقل وأساسه على التحقيق كما سيأتي، لا يعترف بهما الفلاسفة، والمتكلمون تبع لهم في إخراجهما من مسمى العقل والدليل العقلي، وهذا باطل قطعا! وهو اختزال مدمر لمفهوم العقل، يفسد منه العقل والمعرفة والإيمان جميعا، إذ تنقلب معه البدهيات الواضحات إلى موارد للجدال والنظر، ويجري بسببه الإنسان خلف أهوائه أينما انقلبت به، ولا يبالي كم أسقط من أجل تلك الأهواء من ثوابت الفطرة ورواسخ البديهة وكم رد من الحق الظاهر الجلي، في سبيل الانتصار لضلالة هو يهواها ويكره الانفكاك عنها، ولا يجد – مع ذلك – من يصده أو يحجزه عن جموح نفسه في ذلك الهوى، بل يجد من يستحسنه منه ويقره عليه!

ومن أدلة إدخال هذين القسمين في معنى العقل ودلالته في الإسلام، قول الله تعالى: ((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) [البقرة : ١٦٤] فمعنى الآية هنا أن الإنسان العاقل (الذي يصح فيه اسم العقل) بمجرد أن يقف على هذه المذكورات في عادته وتجربته، فإن المعرفة الفطرية بوجود الباري وبكمال صفاته تحضر في نفسه على الفور، بما يحمله على قبول الحجة الرسالية إذا ما بلغته بلا تردد ولا اشتباه! فالعاقل حقا هو من ظهرت له بداهة هذه المعاني إذا ما سمعها تتلى عليه، فقبلها وقبل مقتضاها بلا توقف ولا ارتياب!

وإذا كان مما لا يخفى أنه لا يراها آية حقا ولا ينتفع بها هذا الانتفاع على هذا الوجه إلا من سلمت نفسه من الأهواء المانعة والصارفة عن قبول الحق، فلابد وأن يكون اسم العقل منتفيا عمن تشبع بتلك الأهواء! فالعقل هنا إنما وصف به من استسلم لدلالة الفطرة، وسلمت نفسه من الأهواء الصارفة عن قبولها! وأما الفلاسفة والمتكلمون، فلو أنك عرضت هذه الآية نفسها على أحدهم فسيقول لك ما معناه إن المراد بكونها آية هو أنها تحمل العاقل على نصب "برهان الحدوث" (الميتافزيقي أو الكوزمولوجي أو ما شاكلهما) للتدليل على وجود الصانع، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فإذا كانت هذه المذكورات كلها حوادث، على أساس أنها كانت بعد أن لم تكن، وكانت القاعدة

الكلية المسلمة هي أن "لكل حادث ما أحدثه"، فلابد إذن من وجود المحدث غير الحادث، الذي يرجع إليه جميع ذلك! هذه هي صفة العمل العقلي الذي يراه المتكلم ولا يرى غيره في مثل هذا حتى يصح أن يكون في الخطاب آية تقوم بها الحجة الرسالية على سامعها، فمن لم يحصل في ذهنه ذلك العمل، فلن ينتفع بها، وليس إذن من القوم الذين يعقلون! والحق أنه لم يتكلف أمثال تلك البراهين النظرية الكلية (كطريق لتحقيق المعرفة بوجود الباري) من عقلاء المسلمين أحد ممن سمع هذه الآية قبل هؤلاء، وهو ما يلزم منه ألا يكون أحد غيرهم من أهل القبلة داخلا في اسم العقل، بما في ذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ومن الأدلة كذلك قوله تعالى: ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ)) [البقرة : ١٧٠]، وبيان وجه الدلالة أن آباءهم هؤلاء لابد وأنهم كان منهم النظار والأحبار المرجوع إليهم في إثبات صحة الملة الشركية الباطلة بزخرف القول من البراهين النظرية والقياسية أشكالا وألوانا، وهي تلك البضاعة التي يقدمها الحبر أو القس أو الراهب في المعبد لكل عامي يطلب منه الرد على مخالفي الملة، وتسمى عند بعض أهل الملل باللاهوت الدفاعي أو Apologetics وهي بضاعة لا يخلو من مثلها دين شركي موروث، وتكون أوفر وأكثر تراكما عند أصحابها كلما كان الدين نفسه أقدم في قرون الأمة المنتمية إليه وأكثر تابعا! ومع هذا، أي مع وجود العلماء والأحبار والنظار من كهنة المعبد في تلك الملة، فقد رفع الله تعالى اسم العقل عنهم بالكلية وبإطلاق بلا تفصيل!

لماذا؟ لأن العاقل لا يتبع الظن والهوى في تأسيس الاعتقاد الغيبي والانتصار له، ولا يقيس بعقله على خلاف فطرته وما فيها! ولا يكون الانتصار لملة شركية وثنية إلا محض ظن يحركه الهوى لا محالة، لأنه يظهر بطلانه جليا بمجرد تأمل موضوعه عند من سلمت نفسه من ذاك الهوى! فلو كان رؤوس الشرك هؤلاء عقلاء حقا (أي سالمة نفوسهم من الهوى)، لشهدوا على أنفسهم بأنهم ليسوا على شيء، وبأن البداهة تقضي ببطلان الشرك الذي هم عليه هم وآباؤهم وأساتذتهم من قبلهم جملة وتفصيلا، وبأنه لا قيمة ولا وزن لشيء مما انتصروا به لشركهم الموروث، وإذن لما قابلوا دعاوى الأنبياء والمرسلين كلما جاءتهم بالرد والإبطال والتسفيه كما هي طريقتهم، لا لشيء إلا لأنها تخالف

ما ألفوا عليه آباءهم! فإنه لا يكون انقلاب الحق البدهي باطلا في نفس الإنسان، واصراره عليه ودفاعه عنه إلا ذهابا للعقل وتمحضا في السفاهة على التحقيق، مهما أظهر ذلك الإنسان من ذكاء ونبوغ في الانتصار لذلك الباطل بزخارف الحجج والمغالطات وشقشقات الأقيسة والنظريات، ومهما عرفه الناس بالبراعة في غير ذلك من فنون النظر والعمل العقلي التي لا يبرع فيها إلا الأذكياء والنوابغ من الناس!

فإذا كان ما عند هؤلاء لا يعدو أن يكون ظنا وكذبا عاندوا به بداهتهم ودافعوا فطرهم الدالة على وحدانية الباري جل وعلا، وأهواءً حملتهم على رد الحق الجلي الواضح كلما جاءهم به المرسلون، كان انتفاء العقل عنهم راجعا إلى هاتين الخصلتين لا إلى غيرهما (معاندة الفطرة والانتصار للباطل بالهوى)، مهما بلغ بهم تفننهم في النظر والقياس انتصارا لما هم عليه!

ومن هنا نقول إن اسم العقل عندنا معاشر المسلمين يدخل تحته الذكاء وقوة النظر وبراعة القياس بطبيعة الحال، ولكنه إنما يدخل دخولا ثانويا لا أوليا، أي أنه يأتي تبعا لأصل عظيم مقدم عليه، بحيث إن ذهب ذلك الأصل عند الرجل، لم يبق للذكاء ولا لقوة النظر فيه من قيمة ترفعه فوق الدواب والأنعام، بل يكون إذن أضل منها سبيلا ((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)) [الفرقان : ٤٤]، ألا وهو الصدق مع النفس والسلامة من الهوى المانع من قبول المعارف الفطرية المجبول عليها بنو آدم، ومن قبول الحق الموافق لها إذا تبين والتسليم لمقتضياته! فمن فقد ذلك الأصل العظيم من طمس الأهواء على فطرته، فرأى الشرك خيرا من التوحيد، فهذا لا يقال له "عاقل" عند المسلمين، مهما كان من أذكى الأذكياء وأسرع الناس بديهة وأبرعهم في النظر والقياس! فكما لا ينتفع الإنسان براحلة فائقة السرعة، إن لم يدر إلى أي وجهة ينطلق بها، ومن ثم يصبح فقده لذلك المركب بالكلية خيرا له من اقتنائه، فكذلك لا ينتفع الذكي النابه سريع البديهة بشيء من تلك القدرات العقلية لديه، إن وُجد في نفسه من الهوى ما يجعله ينقض بداهة عقله وفطرته الأولى فيما يتعلق بالغيب وما فيه، يهلك بذلك دنياه وآخرته! بل تصبح تلك القدرات وبالا عليه، إذ تجعله يبرع ويعلو بعقله على أهل الحق فيفتن بباطله المزخرف المزين كثيرا من الناس ويهلكهم على عقبه، ثم يأتي يوم القيامة وقد تعلق برقبته منهم ما لا يحصيه إلا الله!

ولهذا نقول إن العامي المسلم صحيح التوحيد، الذي يرعى غنمه في الصحراء وهو أمي ربما لا يدري كيف يكتب اسمه، هذا أعقل وأحكم بأضعاف كثيرة من نيوتن وماكسويل وأينشتاين مجتمعين! لماذا؟ لأن هؤلاء كلهم ماتوا على غير الحق الجلي البدهي الواضح الذي تصرخ به فطرهم وهم يغالبونه ويعاندونه في أنفسهم (ألا وهو صحة دين الإسلام الذي نقطع بأنهم قد سمعوا به لا محالة!)، فبأي شيء ينفعني ذكائي وعبقريتي إن أبت علي نفسي إلا أن أحرق حياتي وأفني عمري في الشرك برب العالمين، حتى يأتي أجلي وأنا على ذلك؟ بل وأي شيء ينفعني عقلي إن تركت من خلفي كتابات ومؤلفات تغري السفهاء من الناس على التكذيب بربهم وخالقهم وعلى تسفيه المؤمنين به والتنقص منهم، كما تجد في كتابات أينشتاين في الإلهيات وفيما يتعلق بالدين مثلا؟؟ أصادم فطرتي وأضيع مصيري الأبدي من أجل شهوة عاجلة غايتها أن تبقى لبضعة عقود؟؟ هذه سفاهة محضة!

بل إني لأزعم — كما ذكرته في غيرما مناسبة – أن الفارق في اسم العقل بين الواحد من أولئك النظار الأكابر المعظمين لعقولهم وعبقريتهم بين الناس، وبين المسلم الموحد العامي الذي ربما كان لا يقرأ ولا يكتب، لهو كالفارق بين الصبي السفيه الذي ينبهر بالألوان والأصوات والروائح ولا يدري في أي شيء يدخل يده ولا أي شيء يدفع به إلى جوفه، وبين الرجل الحكيم البالغ الذي يميز ما ينفعه وما يضره، فلا ينخدع بما ينخدع به الصبية الصغار، ولا تغره الألوان والأصوات وبهرجة الأشياء! قد يبرع أحدهم في قيادة سيارة حديثة من أحسن وأفخم ما أنت راء من أنواع السيارات، ويصبح مضربا للمثل في ذلك، لكن ما قولك فيه وما حكمك على عقله إن رأيته يقضي الليل والنهار لا يفعل شيئا في حياته إلا الانطلاق بتلك السيارة ذات اليمين وذات الشمال، حتى يفني عمره كله في قيادتها والتجوال بها في أنحاء الأرض بلا غاية يقصدها؟؟ أيقال لمثل هذا إنه عاقل أو حكيم؟ أبدا! فكذلك من بلغ من البراعة المنطقية واللغوية والرياضية منتهاها، وهو مع ذلك لا يدري لأي شيء خُلق، ولأي غاية وُهب هذا العقل الذي ركبت فيه تلك المهارات الباهرة، ولا يبالي بمصيره بعد موته! وشر منه وأبلغ في معنى السفاهة والحماقة ولا شك، من بلغه أن ربه الذي خلقه قد أرسل رسولا يدعو الناس لعبادته وحده لا شريك له، وتعظيمه بما هو أهله، وهو مع ذلك لا يبالي ولا يلتفت ولا يعبأ ولا يريد أن يسمع! وشر منه وأشنع وأغرق في السفاهة من غره عقله وذكاؤه فزعم أن ما تراكم

لديه من نظريات طبيعية وأقيسة رياضية مخلوطة باكتشافات مادية واختراعات تقنية وأسباب مسخرة للناس تسخيرا، قد أغناه عن الاعتراف بحق ربه وباريه عليه، فأخذ يبارزه وكأنما يبصق قِبل الشمس يريد أن يطفئها بفمه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ((يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)) [التوبة : ٣٢]! فوالله إن لم يكن هؤلاء هم السفهاء حقا، فليس في الأرض سفهاء!

والعاقل حقا، الذي يستحق الوصف بكمال العقل، لا يغره هرج تلك الدعاوى التي يدفع بها المشركون من أهل الملل والملاحدة للاعتراض على ملة التوحيد، ولا يبالي بفخامتها وتنميقها الفلسفي واللغوي وبراعة زخرفها عند أصحابها مهما بلغ، ومهما كثر تابعهم عليها وعلوهم بها في الأرض، ولا يلتفت إليها أصلا، ولا يراه مطالبا بأن يأتي بمثلها في إثبات أصول دينه كما يشترطه عليه هؤلاء السفهاء! فإنه من نقصان العقل قطعا أن يقع في نفس الموحد شيء من تلك الزخارف والأوهام المخترعة عند أهل الملل التي صيروها "شبهات"، فإذا به تلح عليه نفسه في طلب ما يدفعها من أنواع الأجوبة، والله المستعان! وأقول إنه من نقصان العقل وغفلته لأن الباطل الجلي الذي تقضي البداهة ببطلانه، لا ينقلب حقا في أعين العقلاء السالمة نفوسهم من الأهواء وإن رأوا أصحابه يمشون على الماء أو يطيرون في الهواء! وإنما يغتر بتلك البهارج والخدع والزخارف الواهية من مالت نفسه إلى أصحابها وتعلقت بهم وبما عندهم، على أثر هوى خفي باطن فيها، كأن يهوى الظهور عليهم بالانتصار لنفسه ولعقله وبإثبات قدرته على الخوض في تلك البضاعة نفسها التي يتكلم بها أصحاب تلك الأكاذيب (وهو ذلك الهوى الذي منه نشأت صناعة الكلام نفسها كما بيناه في غير هذا الموضع).

فمثل هذا يجب عليه أن يعالج عقله وأن ينظر في نفسه وأهوائها وميولها، لأنها لو سلمت له حق السلامة، ما مالت به لاستشكال خرافات المشركين وأكاذيبهم في نصرة ملة لا يخفى على سليم الفطرة أنها باطلة رأسا!

فلا يأتينك – أيها الداعي إلى الله – مسلم يطلب الجواب عن "شبهة" أو تهمة يطلقها بعض أعداء الدين ضد القرآن أو السنة أو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، إلا تعين عليك – قبل بيان

بطلان التهمة نفسها وتهافتها – أن تخاطبه بضرورة أن يعالج نفسه وميولها، فتبين له أن هذا الحق الجلي الواضح الذي جاء به القرآن، هذا التوحيد الخالص المحض الذي لا يظن برب العالمين أن يقبل غيره من المكلفين، هذا لا يستقيم في العقل ولا يجوز أن يكون ناقله إلينا متهما في شرفه أو في عرضه أو في عقله أو في أمانته وصدقه! فالقرآن وحده فيه (في موضوعه نفسه والهداية التي جاء بها) الحجة العقلية الكافية على بطلان كل ما يرميه به أعداؤه، وما يتهمون به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه! فمن وقع على شيء من تلك الشبهات والتهم، ثم وجد نفسه مأزوما محمولا على طلب الجواب عنها، فهذا عليه أن يسأل نفسه سؤالين في غاية الأهمية، وأن يصدق نفسه في الجواب عنهما، وأن يذكر أن ربه مطلع على نفسه، فإن كذب عليها فلن يكذب على ربه!

فأما السؤال الأول فهو: ما الذي حملني على الاستماع لهؤلاء من الابتداء، ولماذا سلمتهم أذني وأرعيتهم اهتمامي؟ ألست أعلم أن دينهم الذي هم عليه باطل بالبداهة والفطرة الصارخة، وأن التوحيد الذي أنا عليه لا يصح في ذهن عاقل إلا أن يكون هو دين الله الحق؟ فما الذي حملني – إذن – على تتبع بضاعة هؤلاء والاستماع إليها؟ فإن حدثته نفسه بأنه أراد من ذلك أن ينتصر للإسلام على ما يروجه هؤلاء، فليسأل نفسه إذن: وهل أنا أهل لأن أنتصر للإسلام ابتداء، وهل لي صفة بين الناس حتى يكون انتصاري أنا على هذا الخصم انتصارا للحق ينتفع به الناس؟ فإن لم يكن الأمر كذلك فما الذي يضمن لي أني إن نصرت الحق حقا – في مناظرة أو مجادلة أو نحوها - على هؤلاء فسينكسر باطلهم وينحسر، ويعلو الحق الذي معي وينتشر؟ وما الذي يأمنني ألا تعلق بنفسي شبهة يحركني هوى خفي عندي إلى استحسانها، فتفتك بديني من حيث أحسب أني أحسن صنعا؟؟ لن يجد طالب "الردود على الافتراءات" جواب هذا السؤال – غالبا – إلا أن في نفسه شهوة خفية للانتصار والعلو والظهور، تجعله يكره أن يتهم بخفة العقل إن لم يدر كيف يدفع هذه التهمة أو تلك عن الإسلام ونبي الإسلام، والله المستعان! ونقول: ما دام ذلك الهوى كامنا في تلك النفس، فلن يكفيها جواب فرية واحدة ولا الانتصار في معركة واحدة، مهما أوتي من أجوبة كلية إجمالية تأتي البنيان من قواعده، وإنما سيستزيد صاحبها من أمثال تلك المعارك والخصومات لا محالة، يريد الانتصار لنفسه في

كل مرة، وهو مع ذلك يزين له شيطانه أن يوهمها بأنه في عداد المجاهدين في سبيل الله، ما يريد إلا نصرة الدين، وإذن يأتي يوم القيامة واحدا من أول ثلاثة تسعر بهم النار، نسأل الله السلامة والعافية!

وأما السؤال الثاني الذي يتعين عليه أن يطرحه على نفسه فهو: "لنفرض أني لم أجد من يجيبني عن هذه التهمة أو تلك أو عن هذه الشبهة (كما يسمونها، ووالله لا ترقى لأن تكون شبهة أيا ما كانت!)، فكان ماذا؟" هل يرى أن من شأن ذلك إن وقع أن يضيره في دينه فيبقى – إذن – مذبذبا مرتابا، لا يدري كيف يحسم موقفه من الدين: أيمسكه على هون أم يدسه في التراب؟ إن كان الجواب نعم، فهو من دينه في حل أصلا، مهما ظن أنه على الدين، إذ الشك ناقض من نواقض الإسلام قولا واحدا! ولا يبلغ الرجل أن يكون شاكا مرتابا في دين التوحيد الذي ورثه من والديه متقلبا فيه، إلا أن يكون قد تشرب من الأهواء بما لا يرجى برؤه، والله المستعان! قال تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً)) [النساء : ١٣٧] وقال عليه السلام في المتذبذب المتشكك: "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مسلما ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا"، فهو من حرصه على عرض الدنيا الزائل من ثمرة العلو والظهور على الخصوم في المناظرات وفي مجالس الفلاسفة والنظار والمفكرين ومن شاكلهم، يعرض دينه لأن يكون غرضا للخصومات، فإذا بها تدفعه عنه يوما وترده يوما، يتقلب ما بين ظن وظن ورأي ورأي، وهو يرى أنه مجاهد على ثغر خطير، والله المستعان لا رب سواه!

وأما إن كان الجواب لا، قلنا: فلماذا إذن تكلف نفسك البحث والتنقيب والتحري حتى تصل إلى جواب؟ هي – إذن – مشكلة صاحب الفرية لا مشكلتك أنت! وهي من فساد عقله هو لا من فساد عقلك أنت! هو بلغت به سفاهته ومرض قلبه – ذلك الأبعد الذي حمّل نفسه كلفة محاربة الإسلام – أن زعم أن فيما جاء به من تهمة واهية للإسلام ونبي الإسلام وكتاب الإسلام أيا ما كانت، ما يكفي لإبطال الحق الدامغ الذي جاء به القرءان، وبه عرف كل عاقل أنه الحق من رب العالمين لا شريك له، ذلك الحق الذي لا يتسع العقل لمجرد فرض أن يقبل الرب من مخلوقاته اعتقادا على خلافه! هو رجل نادى على نفسه بالسفاهة المحضة وذهاب العقل، إذ كذب تلك الكذبة السمجة على نفسه وصدقها،

ثم راح يدعو الناس لقبولها منه، فما شأنك أنت به وما طمعك في مخاصمته والخوض معه؟ فلترفع أنت القرءان إلى حيث لا يماري عاقل في أنه محله ومتزله الصحيح، ودع عنك ذلك العبث وتلك الضوضاء التي إن ترتكها وأعرضت عنها لم تضرك في قليل أو كثير! أما أن تقابل خوضهم ورأيهم بمثله على شرطهم فيما يحصل به البرهان والدليل العقلي، فهذا سفه فوق سفه!

ومن الأدلة كذلك قول الله تعالى: ((وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ)) [يونس : ٤٢]، فانتفاء اسم العقل هنا راجع إلى انتفاء السمع الذي يحصل به قبول الحق الجلي الواضح عند المخاطبين به، مع كونهم يسمعون الحجة بآذانهم ويعقلون معانيها! فهم لما منعتهم أهواؤهم من قبول الحق، صاروا كالأنعام بل أضل، إذ صارت عقولهم كعدمها، لا يحصل لهم بها من الانتفاع بالحق الذي يسمعونه ما يليق بأصحاب العقول! فدل على أنه لا يوصف بالعقل حقا إلا من رأى الحق الذي جاءت به الرسل حقا، ولم يجد في نفسه ما يمنعه من القبول والتسليم واتباع الرسل والانقياد التام لما بعثهم به ربهم!

ومنها قوله جل شأنه: ((وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) [النحل : ١٢] فوجه كون هذه المذكورات آيات، هو أنها تقع من الإنسان السالم من الأهواء الصارفة موقع الدليل البدهي الكافي على وجود الباري وكمال صفاته، ومن ثم استحقاقه لما جاء المرسلون بهداية الخلق إليه من تعظيمه وتوقيره وتوحيده بالقصد والعبادة!

وليعلم أنه مهما جاء الله تعالى بلفظة "آية" أو "آيات" في القرآن، كان المراد هو كل علامة ظاهرة تواطئ المعرفة الفطرية بوجود الباري وكماله، وتشهد لرسالة الرسول بأنها الحق الجلي الذي لا يصح في الأذهان خلافه، فتكون سببا عند أهل النفوس السوية القابلة لحصول الهداية، وتكون هي نفسها سببا عند أهل الأهواء لحصول النفور والغواية! فالقرآن يدلل على صحة دعواه – من حيث الأصل – بالفطرة التي يجدها العاقل مركبة في نفسه، وتشهد لها كل آية وعلامة يذكّر الرب بها المخاطبين به، ويعظ من يماري فيها ويكذب بها ويزجره بما يليق به من أنواع الوعيد والتخويف! فالذي يماري في الفطرة والبداهة ويعاندها بعدما يسمع ما جاء به الرسول، كما هو مسلك سائر المعرضين والمكذبين

والجاحدين من أمة الدعوة، هذا ذاهب العقل لا يرجى منه خير أبدا، ولا يزيده السمع إلا نفورا واستكبارا! ((وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) [النحل : ٧٦]

لهذا ما قوبل الرسل بتلك النطاعات والاعتراضات الهابطة إلا استنكروا ذلك على المعترض أشد الاستنكار واستغربوه منه غاية الاستغراب، كما في قوله تعالى: ((قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَـمًّى)) الآية [إبراهيم : ١٠]! فالذي يحمله مرض نفسه وشيطانه على تكذيب الحق الجلي الواضح بعدما سمعه، وعلى التنكر للبداهة والفطرة، هذا لا يقال إنه لم يقف على "الدليل العقلي" الذي يقنعه بوجود الباري أولا ثم بصحة ملة التوحيد المنسوبة إليه ثانيا، ولا يجاب إلى شرطه في نوع الدليل المطلوب في مثل هذا! وإنما يقال إن في نفسه من الأهواء المانعة ما يزول معه اسم العقل عنه بالكلية، فلا ينتفع بالحق إذا سمعه مهما رأى له من الآيات والعلامات والأدلة! فإن خوطب هذا بعد، فلا يخاطب بالقياس والبرهان النظري كما هي طريقة المتكلمين واللاهوتيين، وإنما يخاطب بالوعظ والتخويف والتبكيت الشديد كما استفاضت به النصوص في كتاب الله جل وعلا!

فمن أراد الله به الخير، فسيتزجر بما يسمع من ذلك، لأنه إذن سيقع في قلبه الخوف من تلك العاقبة الوخيمة للإصرار على الشرك من بعد سماع الحجة، وسيتعاظم لديه الخوف من الخلود في ذلك العذاب الأليم فوق ما قد يكون في نفسه من خوف من التبعة الدنيوية العاجلة لخروجه من دينه ودخوله في دين الحق، وإذن تزول موانع تلك النفس وحواجزها عن قبول الحق الجلي البدهي الواضح، وتزول بإذن الله تلك السفاهة التي أخرجت ذلك المعاند من قبل من اسم العقل بالكلية! ولهذا جاء أكثر القرآن في معالجة نفوس المشركين بالوعظ والتخويف، وفي إيقاف القوم على حقيقة ما في قلوبهم من الأهواء المانعة من قبول الحق الجلي الواضح، حتى إذا ما حصّل الله ما في صدور هؤلاء يوم القيامة وعرضه عليهم لم يكن لهم إذن من مخرج ولا حجة يحتجونها بين يديه! لماذا؟ لأنهم إذن يشهدون على أنفسهم بأنهم كانوا كاذبين، كما قال تعالى: ((لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ)) [النحل : ٣٩]! فلو كانوا أصحاب شبهات عقلية كما

زعموا أنها هي مانعتهم من قبول الحق الذي سمعوه، وماتوا على ذلك، للزم أن يكون من رحمة الله تعالى ألا يعذبهم، ولما صح عليهم ذلك المعنى! ولكن رب العالمين ما ترك للبشر حجة بعد الرسل، كما في قوله تعالى: ((رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)) [النساء : ١٦٥]

والحق أن الدليل النظري أو القياسي الذي يُلتمس لاكتساب بعض أنواع المعارف التي تخلو النفس منها، وزعمت جماهير الفلاسفة أن جنس المعرفة (أيا ما كان موضوعها) لا يحصل للإنسان إلا من طريقه، هو – على التحقيق – أوهن أنواع الأدلة وأضعفها في تحصيل المعرفة، ولا يوصل منه إلى قطع منصرم أبدا، لأنه ما من نظر من هذا النوع إلا ويجوز أن يقابل بنظر مثله، وما من استدلال نظري قياسي إلا يرد عليه المعارض من نوعه (مبدئيا)!

ولهذا لما انحصر مفهوم المعرفة عند الفلاسفة في كونها مكتسبة بالاستدلال النظري والقياس العقلي بعد خلو النفس منها (أي لا يكون معروفا على الحقيقة معلوما على الحقيقة إلا ما سبقه استدلال نظري أو قياسي يفضي إليه، بصورة ما أو بأخرى)، صارت كافة القطعيات والبدهيات الأولى عندهم نظريات وآراء، وأصبح الشك مرضا لا يبارح نفس أحدهم حتى في أوضح الواضحات وأظهر الظاهرات من أقسام المعلومات! وهذا هو محض السفسطة! فعندما يصبح اعتقادي – مثلا – بأن العالم من حولي هو كما أراه حقيقة لا على خلاف ذلك، أو بأن ما يحضر في نفسي من ذكريات الماضي قد حصل لي حقا لا وهما، أو بأني مخلوق مصنوع مربوب لا أملك من أمر نفسي ما يملكه خالقي ومالك أمري الذي أنشأني في هذا العالم على هذه الصورة لا على غيرها بعد أن لم أكن شيئا، عندما تصبح أمثال هذه المعتقدات البدهية آراء نظرية قابلة للأخذ والرد، فمحال أن ينتهي صاحب هذا الموقف المعرفي الكلي بعقله إلى أساس تستقر عليه معارفه بشأن العالم وما فيه فضلا عما وراءه، مهما ظهر له من رجحان "أدلته" على ما يخالفها، لبقاء الباب إذن مفتوحا لورود المعارض عنده! فالشك إذا دخل إلى النفس من أثر خروج البداهة ودلالة الفطرة من جملة أنواع المعارف المعترف بها عندهم، وحلول النظر والقياس في محلها، أصبح مرضا نفسيا فتاكا لا يكاد يتعافى منه أحد أصيب به، كما اعترف بهذا المعنى كثير من الفلاسفة وأذنابهم من أهل الكلام!

ولما خرج الترغيب والترهيب والوعظ من مسمى دلالة العقل عند فلاسفة اليونان، كنتيجة حتمية لخروج البداهة والفطرة ومقتضياتها، أصبح الباب مفتوحا على مصراعيه لكل سفيه سفساط متنطع أن يطرح ما يحلو له من البدهيات للتشكيك والاعتراض، يشترط بذل الدليل النظري القياسي على من يقول بها، إذ أصبح من المستهجن والمستقبح للغاية أن يقابل مثل هذا السفساط بالزجر والنكير والتخويف من فساد مسلكه ذاك ومن أُثره على قلوب الخلق وعقولهم وعقائدهم، على أساس أنه ليس في مطلق الترهيب والوعظ حجة ولا يمتاز به حق من باطل، ولا يجاب به (على شروطهم في أنواع الجواب المقبول) عما يطرحه السفساط من دعوى!

ولهذا نقول إن دلالة العقل عند أهل السنة يدخل في مسماها كل ما يهتدي به العقل إلى الحق، وكل ما تتحقق به شروط حصول تلك الهداية وتزول به موانعها من أعمال القلوب. فالذي يأتيك بالدليل النظري القياسي لإثبات مسألة بدهية، هذا يغشك في الحقيقة، ويخاطبك بما يفسد عليك عقلك، ولا يدلك دلالة من يريد لك الخير! ذلك أنه لو كان صادقا في طلب هدايتك لبين لك أنها مسألة بدهية مغروسة في فطر بني آدم، وأن شواهدها وآياتها لا تخفى على عاقل سوي النفس، ولبين لك أنك إن كان قد دخلك الريب فيها والشك فإنما ذلك من مرض وهوى قد اعترى نفسك، فلا يجد لك خيرا من أن يعظك بما به يرجى زوال ذلك الهوى عن قلبك والشفاء منه بإذن الله، بأن يحذرك من سوء العاقبة إن تركت العنان للهوى ليصرفك عن قبول الحق الظاهر الذي لا يحتاج منك إلى أكثر من الصدق مع النفس حتى تقبله! فمن سفاهة الفلاسفة ومن تشرب بطريقتهم أنهم إن جاءهم من يخاطبهم بهذا الخطاب (الوعظ والنصح والزجر إذا دعت الحاجة)، اتهموه بأنه لا يملك من حجج العقل وبراهينه ما يثبت به موقفه، فلم يجد إلا الخطابة والوعظ والتخويف!

فلا شك أن الوعظ والتخويف لا يقبل إن كان موضوع الدعوى موضوعا نظريا حقا، يحتمل الخفاء والاشتباه، فتتجاذبه الأنظار بين دليل ودليل مقابل! هذا النوع هو ما يقال فيه إن من جاء واعظا مخوفا، فقد جاء بما لا يرام في مثل ذلك ولا يرتضى، إذ لا يصح له الحكم بالجلاء والبداهة وانصرام الأمر فيما ذهب إليه، وكأنه قد علم من نفسه العصمة من الخطأ ومن النقص في التصور! فإن للناس أنظارا كما أن له نظرا، ومن المتصور أن يخفى عليه بعض الأمر كما قد يخفى عليهم!

وليس لأحد من البشر أن يجعل رأيه حجة على غيره لمجرد أنه رأيه هو دون غيره! ولكن ليس هذا النوع من أنواع المسائل هو ما جاء القرآن فيه بالوعظ أصلا، ولا هو ما أرسل الله به رسله للناس ابتداءً! وإنما جاء القرآن بدعوة الناس إلى الإقرار بما يجدونه مغروسا في فطرهم، والتسليم بصحة ما يقتضيه ذلك العلم الفطري بالبداهة والضرورة، ثم العمل بذلك المقتضى ما مُدّ لهم من العمر! فهؤلاء يخاطبون – بصفة أساسية – خطاب وعظ وتذكير، لا خطاب تأسيس لمعرفة تخلو منها نفوسهم ابتداءً! فإن جادلوا في صحة تلك الدعوى وجادلوا فيها وتماروا أو أعرضوا، كانوا أهلا لكل مذمة، ولا كرامة!

ولهذا كان من دلائل صدق النبوة ومن دلائل إعجاز القرآن وأنه من عند رب العالمين حقا لا من عند غيره، أنك تجده يخاطب المشركين خطاب الخالق العليم بما في نفوسهم، الذي يعلم علما كاشفا بموانع قبول الحق الجلي الواضح عند كل مشرك، ويعلم أن خطابه إليهم سيتزل من كل واحد منهم حيث يريد له سبحانه أن يتزل، فيتركه عاريا يوم القيامة مما به يحاجج ربه أو يخفي به ما كان في نفسه! ولو كان القرآن من عند غير الله لوجدته كتابا فلسفيا جدليا، يحرص مؤلفه على حشوه بالبراهين النظرية المتكلفة التي تطيل الطريق على السامع وتصد النفوس صدا، فتبدأ بإثبات الصانع أولا، ثم إثبات وحدانيته وحقه في أن يفرده الناس بالعبادة والتأليه ثانيا، ثم إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثالثا، على ترتيب المتكلمين ومن دار في فلكهم، وجريا في مقدمات البراهين على الطريقة الميتافزيقية الأكثر رواجا في زمان التتريل كيفما كانت! ولكن ليس هذا ما نجده في كتاب رب العالمين، لأنه كتاب رب العالمين! ((أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً)) [النساء : ٨٢] وإنما نرى الحجة العقلية فيه تستوعب كافة مداخل العقل والنفس المفضية إلى قبول الحق إلا عند من سبق عليه القول بأنه من أصحاب الجحيم، فيفضح الله ما في نفسه ويكشفه له ولغيره، ثم يحاجه به يوم لا ينفع مال ولا بنون!

فالحق لا يظهر لعقل قد استكبرت نفس صاحبه على قبوله وكرهت ما يقتضيه ذلك القبول من مقتضيات، مهما كان ذلك الحق جليا واضحا في نفسه، وهو لا يصل إلى عقل تعميه الأهواء أشكالا وألوانا، وهذا باب لا يعبأ به الفلاسفة ولا يبالون به في مادة العقل والدليل العقلي، لأنهم لا يريدون

من الاشتغال ببراهينهم "العقلية" إلا العلو على أقرانهم وخصومهم، والتصدر ببضاعتهم بين الخلق بإثبات براعتهم فيها وتفوقهم بها على الكافة من الناس! فإنه إن صح أن كان الفيلسوف هو أعلم الناس بخبر الغيب وبما يتعلق به من علم لا يصبر الناس على فقده والافتقار إليه، بالنظر إلى كون الطريق إلى بناء المعرفة بذلك طريقا وعرة لا يقدر على سلوكها إلا الأفذاذ من الفلاسفة، كما يزعمونه لأنفسهم، لزم أن يكون الفيلسوف هو المرجع الأعلى والمصدر المنتهى إليه في تأسيس عقول البشر وأديانهم وفي تعليمهم ما به تحصل لهم الحكمة والخير العاجل والآجل، و لم يكن لأحد من الخلق – إذن – أن يدانيهم في تلك المنزلة، بل تعين عليهم جميعا أن يكونوا لهم أتباعا منقادين، وهو المطلوب! ولهذا زعم كثير من الفلاسفة القدماء (ومنهم ملاحدة انتسبوا إلى الإسلام كذبا وزورا كالفارابي وابن سينا) أن النبوة إنما هي منزلة يبلغها الفيلسوف بعد سنوات من الغوص في البحث الفلسفي ومن الجهد والتريض، وهي عند الفارابي منزلة يبلغها العامي (دون الفيلسوف) من طريق "المخيلة" التي هي عنده دون ما سماه "بالقوة الناطقة" (أو باصطلاح المعاصرين: المنطق الاستنباطي) في المنزلة، أي أن كل فيلسوف يمكنه أن يصير نبيا إن أراد، ولكن ليس كل نبي يمكنه أن يصبح فيلسوفا! ولا عجب! فإنه ما تفلسف أحدهم إذ تفلسف إلا ليجعل الناس كلهم تبعا له، مفتقرين إليه وإلى ما عنده، كما يفتقر أهل الملل لما عند أنبيائهم، بل أكثر من ذلك!

فالذي امتلأت نفسه بالكبر والهوى حتى زعم أن الحق الجلي الواضح لا يظهر للعقلاء إلا بأن يكون ثبوته من طريق فلسفته هو أو فلسفة من اتخذه لنفسه إماما ومعلما، هذا لا يجيبه لشرطه الساقط في تحقيق المعرفة بما لا تخلو منه نفس إنسان عاقل أصلا، إلا صاحب هوى مثله، لا يريد هدايته على الحقيقة بقدرما يريد أن يظهر قدرته على إجابة ذلك الشرط وعلى التفوق في مادته على من سواه! ولهذا لا ترى أهل الكلام يستحسنون طريقا لإثبات صحة الدين كما يستحسنون طرقهم الكلامية القائمة على نظريات الفلاسفة المعظمين عندهم!

وأما القرآن، فلم يصدر عن فيلسوف أو متكلم يريد المبارزة والمنافسة والعلو في المناظرة! وإنما صدر عن رب العالمين الحكيم العليم الذي أنزله رحمة للعالمين. أنزله لهداية قوم قد أعد قلوبهم لقبوله،

ولإهلاك قوم آخرين قد أعد قلوبهم لرده والإعراض عنه، فلم يزد حرفا في كتابه عما يحصل به ذاك المطلوب في كلا الفريقين على وجه التمام و لم ينقص حرفا!

فكان أن جاء فيه رب العالمين بكل مثل وبكل آية جلية باهرة حتى يبين جلاء وبداهة الحق الذي أرسل به رسله، ويكشف للمخاطبين به موانع قبول ذلك الحق (على جلائه ووضوحه) عندهم على اختلافهم فيها، ويذكرهم بما هو مركوز في فطرهم وجبلتهم جميعا من الشهادة بصحته، ثم يخوفهم من عاقبة الإصرار على اتباع الهوى والصد عن ذلك الحق بعدما تبين! ولهذا فلا يسمعه مشرك من أي نحلة كان، ومهما كان ما في نفسه من أنواع الأهواء الصارفة، وإلى أيما حد بلغ غرق نفسه في تلك الأهواء، إلا وجد فيه ما يخاطبه خطابا مباشرا، يسلك إلى قلبه هو بعينه كيفما كانت حاله، يستخرج ميثاق الفطرة من باطن نفسه ويصدمه بثقل تلك الأهواء التي تحجزه عن قبوله والتسليم له، فلا يترك له عذرا البتة إن أبى إلا أن يموت على غير دين الإسلام!

من أجل هذا، جاءت الحجة العقلية في القرآن على أربعة أضرب أو أنواع كلية:

- **المحاجة بالتذكير**: أي بمجرد التذكير بالحق الجلي الواضح المركوز في الفطرة، وذكر آياته وعلاماته المنتشرة في أنحاء السماوات والأرض.
- **المحاجة بضرب المثل**: أي بإيراد القصص والأقيسة والأمثال الجلية الظاهرة تذكيرا بما في الفطرة كذلك.
- **المحاجة بكشف ما في القلوب**: ببيان الموانع القلبية والأهواء الصارفة وكشفها وإظهارها وفضح المعاندين من أصحابها.
- **المحاجة بالبشارة والنذارة**: الترغيب في الثواب والترهيب من العقاب. ووجه كون هذا من المحاجحة أن النفس مجبولة على مبدأ تعظيم المثوبة والعقوبة على عظم العمل المجازى عليه. والفطرة تشهد بأنه ليس في العالم المخلوق جريمة هي أشنع عند خالقه من إهانته برفع بعض خلقه إلى مترلته ودعائهم من دونه، سبحانه وتعالى وتقدس. فإن الجريمة تعظم بعظم قدر من اقترفت في حقه. فمجرد مجيء البشارة والنذارة بما جبلت عليه النفس من استحسان

التوحيد وتعظيمه واستقباح الشرك وتشنيعه، كان في ذلك من الحجة والدلالة ما يبصر الله به من يشاء من عباده.

فلا تجد كتابا على ظهر الأرض ولا في امتداد التاريخ البشري كله من أوله إلى آخره، قد اجتمع فيه من مداخل المحاججة العقلية الصحيحة ومسالك هداية المخالفين ومعالجة أسباب مخالفتهم وصدودهم عن قبول الحق، ما اجتمع في هذا الكتاب، كما سيأتي بيانه بعون الله تعالى وتوفيقه. فصدق الذي قال في وصف كتابه: ((وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)) [الكهف : ٥٤] يصرف للناس في القرءان من كل مثل، ومن كل آية جلية ظاهرة تصرخ الفطرة والجبلة البشرية بصحتها، فتراهم يقابلونه — إلا ما رحم ربي - بالجدل وفنونه، والله المستعان!

ولما كان الفلاسفة أصحاب سفسطة كبرى ضاربة في أصول المعرفة ومفهومها ومصادر تلقيها ومفهوم العقل والدليل والبرهان والحجة.. إلخ، وكان هذا هو أساس صناعتهم الخبيثة التي أسسوها في اليونان قبل ثلاثين قرنا، كان من غير المستغرب على الإطلاق أن تراهم ينكرون أن يكون في أي قسم مما ذكرنا من أقسام الحجة العقلية شيء من البرهان أو الدليل المفضي إلى حصول المعرفة المطلوبة في نفس المتلقي! حتى ما في القسم الثاني من أقيسة عقلية وأمثال جلية تراها لا تكفي ولا يحصل منها المطلوب عندهم، لماذا؟ لفساد شرط المعرفة ومصدر تلقيها في هذه القضية عندهم فسادا منهجيا كليا، جعلهم يحصرون العقل والدليل العقلي في طريقة بعينها من طرق الاستدلال لا يتكلفها في مثل هذه القضية إلا متنطعة الفلاسفة ومن دار في أفلاكهم من اللاهوتيين والمتكلمين من أهل الملل، الذين هم أهل المراء بالباطل والجدال المذموم في القرآن، ألا وهي الاستدلال بالطريقة المقدمة أكاديميا للقياس في الغيبيات عند الفلاسفة، في كل عصر بحسبه!

خذ على سبيل المثل قول إحدى الملحدات في مقال لها تنتقد فيه القرآن: "(بديع السماوات والارض أنى يكون له ولد و لم تكن له صاحبة) تؤكد هذه الاية وتنفى ان يكون لله ولد و تسوق فى

سبيل ذلك سببا غير مقنع ولا عقلاني ان الله ليس له زوجة. وهذا السبب مضحك جدا وساذج لان الله قادر على كل شيئ و يستطيع بقدرته المطلقة ان يكون له و لد بدون زوجة." هــ.

قلت: تأمل السخافة المحضة وخبث النفس في الاعتراض، وتعمد التشغيب على الحقيقة الفطرية البدهية الجلية التي هي تنزّه الرب خالق السماوات والأرض جل ذكره عن اتخاذ الولد لما يقتضيه ذلك من افتقار وحاجة، وما في ذلك من معاني النقص الواضحة ومتعلقاتها ولوازمها التي لا تصح إلا في المخلوق! فالحجة في هذه الآية قائمة من جهة أنها تذكر سامعها بما هو مركوز في فطرته ومركب في جبلته من وجوب تنزيه الباري جل في علاه عن الولد وعن متعلقات اتخاذ الولد ومقتضياته، كما في قوله تبارك وتعالى: ((وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً)) [الجن : ٣]! فهذه حقيقة بدهية مركوزة في فطرة الإنس والجن جميعا، بحيث إذا سمعوا ما يذكرهم بها بمجرد التذكير، صدقوه وقبلوه من فورهم، إن خلت نفوسهم وقلوبهم من الأهواء المانعة! فإن لم تخل نفوسهم من الموانع، فيكون القرآن إذن قد قرعهم على رؤوسهم بالتشنيع والتقبيح، وبالحجة التي لا يملكون فكاكا منها يوم الحساب، وإذن تتم بذلك حجية القرآن على كل سامع ومن كل وجه!

فليس المقام في هذه الآية ونحوها مقام سوق للسبب العقلي الكلي الذي من أجله لم يجز لله أن يتخذ ولدا كما تزعمه تلك السفيهة، وليس المقصود نصب البرهان النظري أو القياسي الذي تحصل به المعرفة الظنية بتلك الحقيقة في نفس المخاطب بالقرآن بعد أن لم تكن لديه، فهي مسألة فطرية بدهية أصلا، من زعم خلو نفسه منها فهو كذاب أشر! ففي مثل هذه الحقيقة المعلومة عند كل عاقل بضرورة العقل، فإنما تقوم الحجة بالتذكير بها أولا، ثم بالتشنيع على المخالف فيها وزجره عن ذلك ثانيا! وتشنيع دعوى اتخاذ الولد في حق الباري حصل ها هنا بإحضار ما يقارنها ويناظرها في معنى النقص الذي لا يليق إلا بالمخلوق (وهي دعوى اتخاذ الصاحبة)، حتى تستقبح النفس ما في نسبة الولد إلى رب العالمين من تنقص في حقه وحط عليه عظيم، سبحانه وتعالى علوا كبيرا! وترى التشنيع يحصل في غير هذا الموضع من القرآن بما هو أبلغ في التخويف والترهيب كما في قوله تعالى: ((وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً . إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً . لَقَدْ

أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً)) [مريم : ٨٩- ٩٥] فوالله لا يسمع رجل صحيح العقل سوي النفس هذه الآيات على هذا النظم الفريد الموجز المعجز المبين، إلا كاد قلبه أن ينخلع من ضلوعه، من شناعة تلك المقالة الفاحشة في حق رب العالمين، ومما هو نازل بأصحابها من غضبه ونقمته جل في علاه! قال تعالى: ((لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) [الحشر : ٢١]

فبدلا من أن يحضر هذا المعنى الجلي (بطلان نسبة الولد إلى الرحمن) عند هذه المجرمة وترتج نفسها من شناعته في حق باريها تبارك وتعالى، كما هي الثمرة المتوقعة في كل عاقل صادق سليم النفس تقع هذه الآية ونحوها على مسامعه، تجدها تسخر منه وتهزأ به وتدعي أن صاحب هذا الكلام قد عجز عن بيان "السبب المقنع" (جدليا) في امتناع اتخاذ الولد في حق الباري، وكأنما نتكلم في مسألة نظرية خفية تحتاج إلى قياس واستدلال وترتيب نظري مخصوص حتى تظهر لسامعها بعدما خفيت! فصدق الذي علمنا أحوال هؤلاء وأمراض قلوبهم، وحاججهم بما كشفه لنا ولهم من أحوالهم مما يعلمونه من أنفسهم ولا يخفى عليهم، في مثل قوله تعالى: ((وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)) [الزمر : ٤٥] وقوله: ((وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـــذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ)) [التوبة : ١٢٤-١٢٥]!

فالحق أن في قلبها مرضا خبيثا ورجسا كثيفا يجعلها تكره الدخول في هذا الدين، وتكره أن تخضع لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتسلم حياتها وقياد أمرها لله ولرسوله، لما في ذلك من حرمان من كثير من الشهوات الفاسدة التي لا تتصور لنفسها الزوال عنها ومفارقتها، ومن تكلف لكثير من الأعمال التعبدية الدائمة المتوالية في اليوم والليلة التي تثقل على نفسها غاية الثقل! هذه هي القضية، وهذا ما في نفسها وأمثالها تحقيقا، وهو سبب إلحاد كل ملحد قطعا ويقينا وإن قال قائلهم ما يشاء! وهو سبب نشأة الملل الطبيعية كلها على اختلاف عقائدها عند أصحابها عبر العصور بلا استثناء! ولو أنها ماتت على ما هي عليه من ذاك المرض القلبي الخبيث الذي يجعلها تستكبر عن قبول الحق الجلي الواضح وتسفهه وتسخر منه وتتأبى عليه، لما استطاعت يوم القيامة أن تدفع عن نفسها

التهمة به! فهذه الكاتبة وأمثالها لا يخاض معهم ولا يجادلون – كما ترجو هي وغيرها من الملاحدة أن يكون هو موقف المسلمين منهم ومسلكهم معهم: الجدال الدائم السرمدي بلا غاية ولا نهاية –، فلأن يُسمِع أحدنا ميتا أو أصما أرجى له من أن يسمع مثل هذه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وإنما الحكم والعمل فيها وفي مثلها لأولي الأمر وفقهم الله ونصرهم على أعداء الملة!

وخذ كمثال آخر اعتراض بعضهم بقوله: "لماذا لم يترل القرآن مبوبا بحيث يكون فيه باب في الكلام على العقائد، وباب في العبادات، وباب في القصص .. إلخ؟ تجد السورة الواحدة تتناول ذلك كله، فتبدأ بالعقائد، ثم تتحول إلى القصص، ثم تخرج منه إلى المواعظ وأخبار الغيب، ثم ترجع إلى القصص .. إلخ! فلو كان هذا الكتاب من عند رب العالمين حقا، لرأيناه مبوبا تبويبا موضوعيا كما نجده في الكتب العلمية المحترمة!" فيقال لمثل هذا: لا والله لو كان على ما وصفت لبعد أن يكون من عند الله، لا كما زعمت! فيا سفيه يا عدو نفسك، القرآن ليس معجما أو كتابا أكاديميا كتب لمثل أغراض المؤلفين من بني آدم في تأليف كتبهم وتقسيم موضوعاتها! وإنما هو كتاب جامع لكلام رب العالمين، نزل لهداية الثقلين من زمان التتريل وإلى يوم الدين! فلا يخضع في عرض موضوعاته وترتيبها لشروط هذه الطائفة أو تلك من أصحاب التصانيف أو من أرباب الصناعات من الإنس أو الجن، وإنما يخضع لحكمة أحكم الحاكمين، التي اقتضت في نظمه وترتيب آياته ما لا يحصل المقصود منه على وجه التمام إلا به! ولا يلزم حتى تحصل الهداية منه لكل سامع سليم النفس، أو تقوم الحجة به على كل مكابر مريض القلب، أن يأتي نظمه على ما يستحسنه كل نطع مكابر من طرائق التأليف والتبويب وعرض الموضوعات، وهذا واضح ولله الحمد!

ووالله لو أنه رُتب على ما يشترط هؤلاء وبُوب على ما يزعمون افتقاره إليه، لجعلوا هذا دليلا على بشرية مصدره وعلى أن محمدا قد نقله من كتاب كذا أو كتاب كذا، فالحمد لله الذي كشف لنا ما في قلوب هؤلاء وبينه أكمل بيان! قال تعالى: ((وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَــذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ)) [الأنعام : ٧] وقال جل شأنه: ((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)) [الفرقان : ٣٢]! وقال تعالى: ((وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)) [الزخرف : ٣١]! فنقول

لهؤلاء: يا هؤلاء قد نبأنا الله من أخباركم، وأظهر لنا ولكم ما في قلوبكم، فلا يعتبر بذلك إلا من خلا قلبه من الأهواء المانعة، فضلا من الله وحده! لن تؤمنوا ولو جاء الكتاب على ما اشترطتم! ((تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)) [الأعراف : ١٠١]، ((ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ)) [يونس : ٧٤]، ((فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ)) [القصص : ٤٨] لن تؤمنوا ولو فتح الله السماء من فوقكم أبوابا وأنزل إليكم الملائكة قبيلا ((وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)) [الحجر : ٦-٧]، ((وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـــكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)) [الأنعام : ١١١]! لن تؤمنوا ولو رأيتم الله جهرة كما اشترطه أمثالكم من قبل! ((يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً)) [النساء : ١٥٣] والله لن تؤمنوا حتى تروا العذاب الأليم ((وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)) [الأحقاف : ٣٤]!

أتدرون لماذا لن تؤمنوا حتى تقرعكم ملائكة العذاب بسياطها يا هؤلاء؟ لأن قلوبكم مطبوعة على الكبر والإباء، فما كنتم لتخضعوا لرجل أمي من عرب الجزيرة، اصطفاه الله ليجعله للعالمين بشيرا ونذيرا! ويوم القيامة ستشهدون على أنفسكم بذلك الكبر والظلم المبين ((وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)) [الأنبياء : ٤٦] ووالله لينكسرن أكبركم عتوا واستعلاء وأكثركم كبرا وتجبرا بين يدي ربه يرجوه أن يعيده للحياة الدنيا بعدما سمع وأبصر، لعله يعمل صالحا فيما ترك، لكن هيهات! ((وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ)) [السجدة : ١٢] ((قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)) [غافر : ٥٠]!

ونظير ذلك ما يعترض به بعض السفهاء من قولهم: "لماذا يحصل التكرار في آيات القرآن حتى إنك لتجد في سورة الرحمن قوله ((فبأي آلاء ربكما تكذبان)) يكرر فوق الثلاثين مرة، في كل آيتين أو ثلاث، آية مكررة؟؟ هل هذا كلام من يريد الإقناع العقلي؟" فيقال: لا والله، ليس هو كلام من يريد الإقناع العقلي على مفهومكم الفاسد للعقل وللإقناع جميعا، وإنما هو كلام من يريد الزجر والتخويف لنفوس مستكبرة لا يزال التذكير بآيات الله تعالى يقرع آذانها المرة بعد المرة، ثم هي لا تبالي ولا تلتفت! إنها المحاججة بين يدي رب العالمين على أكمل ما تكون، فسبحان من له العزة والملكوت، وإن كره المشركون!

والقصد أيها القارئ الكريم أن خطاب القرآن لهؤلاء تقوم به الحجة عليهم من جهة إيقافهم على ما هو في نفوسهم تحقيقا، مهما كذبوا هم على أنفسهم بنفيه أو أخفوه عن الناس، وبإعلامهم بما هو نازل بهم من العذاب إن أبوا إلا أن يموتوا على ذلك الكبر الموبق والاستعلاء المهلك! وهو كذلك تخويف لمن كان في نفوسهم صغو وميل لهؤلاء ولما استدرجهم به ربهم من الخير العاجل! ((وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ)) الآية [الأنفال : ٦٠]! وهو كذلك تعريف للمؤمنين بأحوال هؤلاء حتى يقطعوا الطمع في تغير أحوالهم وقبولهم للحق وكفهم عن إيذاء المؤمنين ((لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ . وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون)) [الشعراء : ٣-٦].

فليتزل القرءان مبوبا أو غير مبوب، وليتزل منجما أو جملة واحدة، وليتزل مكررا أو غير مكرر، بل وليتزل على أيما نحو يشترطونه، فما كانوا ليؤمنوا به على أي حال، وهم يعلمون ذلك من أنفسهم علم اليقين! قال تعالى: ((وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ)) [الأنعام : ٧]، وقال عز وجل: ((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ

جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)) [الفرقان : ٣٢] وقال تعالى: ((وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)) [الزخرف : ٣١] وقال تعالى: ((فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ)) [القصص : ٤٨]. فلا عليك – أيها الداعي إلى الله – بما يقوله هؤلاء، فما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين! وإنما ترجو الهداية لمن لا يقابل الدعوة بالكبر والتنطع واشتراط أن تأتي مادة الوحي الإلهي على مزاجه وهواه!

وتأمل – كمثال آخر – قول أحدهم معترضا في موقعه على الشبكة: "ولو كان القران معجزة حقيقية ما انتقده احد. ولصدقه الجميع على الفور ولافحم المعارضين . ولكن القران محل شك وجدل و نقد من اول يوم ظهر فيه حتى الان." قلت: هذا كلام رجل يكذب على نفسه وهو يعلم! ألم ير أن من الناس من انتقد اعتقاد العقلاء بأن هذا العالم الخارجي الذي نلمسه بأيدينا ونبصره بأعيننا حقيقة وليس وهما أو خيالا، ومن الناس من انتقد مبدأ استعمال العقل نفسه والاطمئنان لما يدل صاحبه عليه، وأن من الناس من اعترض على ثبات الرابط بين الألفاظ ومعانيها ومدلولاتها واطراده في ألسنة البشر، وأن منهم من انتقد معنى الحقيقة نفسه وزعم جواز قبول المعنى ونقيضه معه، إلى غير ذلك من سفاهات البشر وسفسطات الفلاسفة؟! بلى! رأى كل ذلك وسمع ما هو أبطل منه وأفسد! فما من دعوى ظهرت في الناس وانتشر خبرها إلا وجد في الأرض من ينتقدها ويكذبها ويردها على صاحبها أيا ما كان موضوعها، فكان ماذا؟؟

ثم إنه كذلك يعلم أن القرءان لم ينزل من أجل أن يحول البشر كلهم من أولهم إلى آخرهم إلى مؤمنين موحدين، فلا يبقى منهم كافر ولا مكذب ولا معترض! وإنما أنزله الله امتحانا وابتلاء للمخاطبين به ((وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)) الآية [آل عمران : ١٥٤]، أنزله كما أنزل ما قبله من الكتب حتى يؤمن من استحق الهداية بفضل الله ورحمته ويكفر من سبق عليه القول فاستكبر واستعلى (كصاحب هذا الاعتراض وغيره) فاستحق اللعنة وبئس المصير!

ولهذا خلق الله الخير والشر في العالم و لم يجعله خيرا محضا ولا شرا محضا، وإنما قدر في خلقه جميع ما تحصل به الغاية الكلية التي من أجلها خلق السماوات والأرض سبحانه وحجب نفسه فيها بحجاب الغيب عن خلقه المكلفين جميعا، رضي من الخلق من رضي وكره من كره، ألا وهي الابتلاء والامتحان! فلو شاء سبحانه أن يترل آية يخضع بها أعناق العباد كافة فلا يبقى فيهم معرض ولا مستكبر، لما أعجزه ذلك جل شأنه، ((إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)) [الشعراء : ٤] ولكن ما هكذا أراد سبحانه، وما هكذا اقتضت حكمته جل وعلا! وهذا المعنى (أعني اختلاف البشر وتفاوتهم بين أخيار وأشرار، ووجوب أن يكون ذلك كله داخلا في حكمة الباري في خلقه هذا العالم) أمر يعلمه هذا المعترض قطعا بما يجده في فطرته كغيره من آحاد البشر، ومع ذلك تأمل كيف يعترض وكأنه لا يدري ولا يعقل! فما نقول إلا: هي إرادة الرب الكونية وحكمته الإلهية وهو صاحب الخلق والأمر والتدبير، لا شريك له، يرفع من يشاء ويخفض من يشاء، لا يسأل عما يفعل وأنتم تسألون، قضى بحكمته أن يخلق الكلب والخترير وما هو أحقر وأذم من أنواع الدواب، ((إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)) [الأنفال : ٥٥] فاعترضوا ما شئتم، فلكم ميعاد يوم معلوم، لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون!

أرأيت لو أن رجلا جاءك يزعم أنه لا يجد دليلا على وجود العالم المحسوس خارج ذهنه، أفكنت تجيبه إلى ما يطلب، تتكلف أن تأتيه بما يشترط من أنواع الدليل القائم على مقدمات معلومة لديه، حتى تحصل لديه تلك المعرفة، أم تراك تذهب – من فورك – إلى اتهامه في عقله؟ لابد أن تتهمه في عقله لا محالة! فإما أنه صاحب هوى، يريد أن يظهر في قالب المكذب لتلك الحقيقة البدهية الجلية لشيء يطمع فيه يرى أنه لا يحصل له إلا بذلك، أو لشيء يخاف منه يرى أنه لا يسلم منه إلا بذلك، وإما أنه فاقد لآلة التعقل نفسها (فاقد للقدرة على الفهم والتمييز البتة)، فمثله لا يخاطب بشيء ولا يلتفت إليه ولا يعامل إلا معاملة الأطفال! فإن كان صاحب هوى، وأردت أن تخاطبه بما يناسب حاله لمصلحة تراها، فلن تخاطبه إلا بما يعالج ذلك الهوى عنده، إن أردت له الزوال عما هو عليه، أو أردت إقامة الحجة عليه! فإن قدرنا أن كان يترتب على بقائه على اعتقاده هذا هلاك له في العاجل أو في الآجل، فلا شك أن من رحمتك به أن تأتيه بالترغيب في عاقبة الزوال عن ذلك الباطل لعله يميل قلبه

عن هواه بسبب الطمع فيما عندك، أو تأتيه بالوعظ والترهيب والتخويف من عاقبة البقاء على ما هو عليه، لعله يترجر ويفيء إلى رشده فرارا من الهلكة! هذا هو مقتضى الحكمة والعقل في خطاب من كذب بالواضحات الجليات وزعم أنها عنده تفتقر إلى دليل يكسبه المعرفة بها بعد عدمها!

فكذلك القرءان، ولله المثل الأعلى! فالرب جل شأنه يعلم أنه يخاطب بشرا قد غرس في فطرهم وجبلتهم العلم البدهي بوجوده جل شأنه، وبأنه هو خالق كل شيء وحده لا شريك له، وباستحقاقه – من ثم – أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له، وباستحقاقه كل ما هو كامل من الصفات، وبكونه هو الحكيم العليم الذي يضع الشيء في موضعه ولا يخلق إذا خلق عبثا أو هملا، وما كان ليدعو خلقه إذا دعاهم إلى ملة من الملل لأن يعبدوا بعض خلقه معه أو يتخذوه له ندا، وإنما يدعوهم إلى توحيده تمام التوحيد وتوقيره بما هو أهله سبحانه!

هذه كلها معان بدهية قد فطر الله البشر على اعتقادها، فهي معلومة من قبل عند كل عاقل لا تحتاج إلى إعلام! فلا يزعم إنسان أنه لا يجد على بعضها أو على مجموعها دليلا يكسبه العلم بها، إلا وجب أن تقطع باتهامه على العقل نفسه! تدعوه إلى عبادة رب العالمين وحده لا شريك له فيعترض على دعواك ويزعم أنك تفتقر إلى دليل يدله على أن الرب يريد ذلك من البشر، فاعلم من فورك أنه كذاب أشر، يكذب على نفسه وعليك وعلى ربه الذي خلقه!

ولهذا لم ينزل الله تعالى القرءان على شروط هؤلاء، يأتي كل متنطع مسفسط منهم بنوع الدليل الذي يشترطه هو لإثبات أمور هي من بدهيات العقل الأولى! وإنما جاء القرءان يذكر سائر المخاطبين به بما هو مركوز في فطرهم من الشهادة والإقرار بما تقدم ذكره، ولا ينكره أحدهم إلا وهو يعلم – بالضرورة – أنه كاذب مكابر، يحمله هوى نفسه على التماس المخارج الواهية والاعتراضات الساقطة على الحق الذي جاء به الرسول، طمعا في البقاء على ما هو عليه من الباطل وكراهية للتحول عنه إلى غيره! فهو مع التذكير بثوابت الفطرة، يعالج نفوس المخاطبين وميول قلوبهم بما يناسبها على اختلافها، ويسوق لكل فريق منهم من الأمثال والآيات والحجج ما يليق به، ويحصل به المقصود من خطاب القرءان على وجه التمام! ووالله لو جاء القرءان على خلاف هذا المنهج الحكيم لحق لنا أن نتهمه بأنه

من تأليف البشر وليس من وحي رب العالمين! لماذا؟ لأنه لا يقابل السفساط المكابر بالسفسطة والمراء والخوض معه على شرطه إلا جاهل أو صاحب هوى مثله! أما هذا، فكتاب أحكمت آياته وفصلت من لدن حكيم خبير! فليس أحد أخبر من الباري جل وعلا بما في نفوس عباده وبما يصلحهم وبما يهديهم وبما يطغيهم وبما يحجزهم عن قبول الحق الذي أرسل به رسله إن ردوه أو أعرضوا عنه أو تماروا فيه، وبما ينقل أهواء قلوب من شاء لهم الانتقال من عباده إلى ما شاء لهم أن ينتقلوا إليه، والحمد لله أولا وآخرا!

فإذا تبين لك ذلك، فهذا أوان تفصيل ما أجملناه من بيان لأنواع الحجج العقلية الأربعة في كتاب الله جل شأنه.

أولا: المحاججة بالتذكير

ووجه كونها تذكيرا أن الفطرة تشهد بصحة المعنى المذكور إجمالا وبصحة مقتضياته كما تقدم، فتقوم الحجة على المخاطب بها بمجرد إزالة الغفلة من طريق التذكير، سواء كان الخبر المذكر به خبرا من عالم الشهادة أو من عالم الغيب، على ما يستدعيه مقصود الهداية من تفصيل وبيان.

ومن ذلك قول الله تعالى في صدر القرآن: ((الحمد لله رب العالمين . الرحمان الرحيم . مالك يوم الدين)) (الفاتحة ٢-٤)، فالمخاطب إن كان عاقلا مميزا سوي النفس، يفهم لسان الخطاب، ولا يجد في نفسه من الهوى ما يمنعه من قبول الحق، فسينتبه بقلبه ووجدانه ومجامع نفسه لكتاب مفتتح بنسبة المحامد كلها لرب العالمين وحده، يذكره بما يجد في فطرته من مصداق ذلك! فإنه ليس يليق بالباري جل شأنه في فطرة البشر إلا أكمل الحمد وأتمه وأحسن الثناء وأبلغه! فلا يتصور بحال من الأحوال، فيمن كان هذا وصفه وكانت تلك حاله، أن يعترض على هذا المعنى المحكم الرفيع الذي افتتح به هذا الكتاب العظيم في كلمات موجزة تعد على أصابع اليد الواحدة! ولا يمكن إلا أن يدرك أنه بصدد التعرض لنبأ عظيم، وأنه يجب عليه أن ينصت وينتبه ويستمع باهتمام بالغ وعناية شديدة لجميع ما يأتي به ذلك الكتاب، إن أراد الخير لنفسه!

لا سيما ومعلوم أنه لن يتعرض لسماع هذا القرآن أو قراءته في الغالب إلا من بلغه من قبل أنه كتاب يزعم أصحابه أنه مُنزل من رب العالمين، وأنه يدعو الناس لعبادته وحده لا شريك له! فالحجة قائمة على كل من سمع بهذا القدر وبلغه هذا الخبر المجمل حتى من قبل أن يسمع ما في القرآن أو يتعرض لتفصيل تلك الرسالة! ولهذا قال عليه السلام: "والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار" (أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه)! ذلك أنه لا يتعرض عاقل سوي النفس لخبر كهذا، إلا لزم أن يجد نفسه تحمله حملا على تطلب ذلك الخير والتشوف له والتنقير عنه، لأن داعي الفطرة في نفسه يشعره – لا محالة – بوهاء ما هو عليه من ملة واعتقاد، أيا ما كان ذلك، من ملل الشرك الشتيتة في أمة الدعوة، الكتابية منها وغير الكتابية!

ولا شك أن الحجة بسماع ذلك الخبر على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) أعظم وأظهر، لأنهم قد سبق لديهم علم الكتاب، وبلغتهم النبوات بأن ربهم سيرسل إليهم في الأميين رسولا مصدقا لما معهم، يدعوهم إلى عبادة رب العالمين وحده لا شريك له! فلا يكون الواحد من هؤلاء صادقا في طلب الحق، سالم النفس من الأهواء الصارفة عن قبوله والانقياد له، كارها – من ثم – لما ورثه من أهل تلك الملل المحرفة مما هم عليه من شرك بين وتحريف ظاهر، إلا سارع من فوره لطلب لقيا ذلك النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، أو لقيا من ورثوا منه رسالته حتى يسمع منهم ما عندهم، ويرجع بدينه إلى الأمر الأول، إلى الملة الحنيفية الخالصة، وإلى مصداق الفطرة التي كان عليها من قبل أن يهوده أبواه أو ينصراه!

فمن بلغه هذا النبأ العظيم من هؤلاء، فأعرض ولم يبال وآثر البقاء على ما هو عليه، فلا عذر لهذا بين يدي ربه يوم القيامة بأنه وجد المسلمين فيهم كذا وفيهم كذا، أو بأنه سمع عن جماعات تقتل وتذبح هنا وهناك باسم الإسلام، وعن أقوال أو أفعال تنسب إلى الرسول عليه السلام وهي مما يكرهه أهل أمته التي ولد فيها من المشركين أمثاله، أو غير ذلك من أمور يتذرع المتذرع بها ليقول "إن الإسلام لم يبلغني إلا مشوها ممسوخا"! فإنه لو كان الأمر كذلك حقا، فأنت محجوج بتخلفك عن طلب الإسلام الحق الصحيح من مظانه التي يطلب منها! لقد رأينا من الصادقين ممن كملت عقولهم من أهل الفترة قبل بعثة النبي عليه السلام من مات وهو يقول من بعد بحث وتنقيب ما معناه: "يا رب لو علمت كيف أعبدك وحدك كما تحب لعبدتك، ولو علمت إليك طريقا لسلكته، لكني لا أعلم"! فما بالك أنت يقال لك قد بعث الله رسولا يدعو الناس للتوحيد الخالص، فبدلا من أن تسارع لتلقي ما جاء به الرسول، تعرض وتتنطع وتقول: "ما بلغني إلا أنه دين يؤمر فيه الناس بكذا وكذا"، أو تقول "لست داخلا في دين ينتسب إليه من يفعل كذا وكذا"؟؟

والله ما يكون هذا إلا من قلوب ميتة منتنة لا خير فيها! ووالله لو أنك يا هذا صدقت في طلب الهداية وفي الوقوف على صحيح هذا الدين لأوفقك ربك ولأسمعك ولما خذلك أبدا، فهي سنته الماضية في عباده جل شأنه، كما في قوله تبارك وتعالى: ((وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)) [العنكبوت : ٦٩]، فلو علم الله فيك حرصا على الحق وبذلا للنفس والمال طلبا في

الوقوف عليه، وتجردا من جميع الأهواء الصارفة في سبيل ذلك، لألهمك تقواك ولهداك إلى سبيل الرشاد الذي بعث به رسوله رحمة للعالمين ((وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ)) [محمد : ١٧]، فالله تعالى لا يقابل الإحسان إلا بالإحسان ((هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)) [الرحمن : ٦٠] ((مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً)) [النساء : ١٤٧]! فلو كنت صادقا في طلب الحق في هذا الأمر العظيم الخطير، وفي طلب الخروج من ملة أنت تعلم في باطن نفسك أنها على خلافه يقينا، لما أثناك عن ذلك طرفة عين، ما تجده من انحراف المنحرفين وضلال الضالين من المنتسبين إلى الإسلام مهما عظم وتكاثر من حولك!

عن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه قال: كنت وأنا في الجاهلية، أظن أن الناس على الضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا، فقعدت على راحلتي، فقدتم عليه، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفيا، جراء عليه قومه فتلطفت، حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: "أنا نبي"، فقلت، وما نبي؟ قال "أرسلني الله"، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: "أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء" قلتُ له : فمن معك على هذا؟ قال " حُرٌّ وعبدٌ " (قال ومعه يومئذٍ أبو بكرٍ وبلالٌ ممَّن آمن به) فقلتُ : "إني مُتَّبِعُك" ... إلى آخر الحديث (أخرجه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده).

قلت: فتأمل كيف أنه رضي الله عنه لما خلت نفسه من الأهواء التي تعمي البصر والبصيرة، قبل ما حدثته به نفسه من دلالة الفطرة على بطلان ما عليه قومه وأهل ملته وأنهم ليسوا على شيء، ولم يتلمس الحيل والتسويغات الباردة التي تزينها النفس المريضة لصاحبها، كأن يقول: لعل لهم دليلا لا أعلمه، أو لقد سمعت من معجزات تلك الأوثان كذا وكذا، وأنه قد دعاها فلان المريض فشفي وفلان الفقير فرزق .. إلى آخر تلك التسويغات الفارغة التي يزين بها رؤوس كل ملة شركية للأذناب البقاء عليها!

فلما بلغه أن رجلا بمكة يدعو الناس إلى التوحيد ونبذ الشرك وعبادة الأوثان، لم يتخلف ولم يتلكأ أو يتكعكع ولم يعرض بوجهه وقلبه طرفة عين، ولم تزين له نفسه الإعراض والصدود بأن يقول

(مثلا): لعله كذاب طالب دنيا، أو لعله جاهل يهذي أو لعله كذا أو كذا! لم يفتح لنفسه الباب لتقعده عن لقيا صاحب تلك الدعوى بمعاذير وحيل واهية، كما أقعدت تلك الأمراض والحيل غيره من أهل ملته!

ثم إنه لم يكذب على نفسه ولم يوهمها بأن التوحيد يحتاج إلى دليل نظري يثبت كونه أحب إلى رب العالمين من الشرك، ولم يوهمها بأن وجود ربه وخالقه نفسه أمر يفتقر إلى دليل يثبت صحته، ثم مكث عمره كله يغالب فطرته ويعاند آيات ربه البينات ويوهم نفسه بأنه لما يقف بعد على دليل "عقلي" في هاتين القضيتين العظيمتين، كما تزينه الفلاسفة لأنفسهم ولأتباعهم جحودا واستكبارا ((وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً)) [النمل : ١٤]، كمن قال تعالى في مثله: ((كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً . سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)) [المدّثر : ١٦-٢٥]! لم يمكث لسنوات يناظر ويناقش ويقول كما نسمعه من كثيرين من أهل هذا الزمان: "لقد بحثت ودرست في عشرات الأديان وقارنت بينها فلم أصل إلى شيء، وما وجدت إلا أن الأمر مشتبه متقارب!"! لم يقل: "لعل الحق في دين كذا أو في دين كذا" مما اختلف فيه المشركون من أهل الملل في زمانه، ثم غاص في كتب أهل تلك الملل رياضة وسياحة، يأخذها طولا وعرضا! بل جمع أمره ومتاعه رضي الله عنه واتبع "بوصلة التوحيد" في نفسه وارتحل من فوره إلى مكة ليلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسمع منه ما عنده، فآمن به كما هو حقه!

لماذا؟ لأن موضوع الدعوى نفسه هو عين ما يبحث عنه كل طالب للحق صادق في تحريه والبحث عنه! إنه التوحيد الذي تصرخ به فطرة كل عاقل سوي النفس! تلك الفطرة التي اقترف الفلاسفة أعظم جريمة في حق نوعنا البشري بنفيهم إياها وإسقاطهم دلالتها العقل على الحق الذي جاءت به الرسل، ثم زعموا أن أتباع الرسول عليهم أن يبدؤوا أولا بإثبات الصانع بمقدمات ميتافزيقية يرتضونها هم سفسطة وتنطعا، إن أرادوا أن يكون لدينهم وإيمانهم أساس عقلي يقوم عليه! تلك الفطرة التي لو لم توجد في الإنسان لاستحسن كل قبيح ولاستقبح كل حسن، وإذن لما بقيت لنوع البشر في الأرض بقية أصلا! هذه الفطرة حق لا ينكرها في نفسه إلا كذاب مكابر!

ولهذا نقول إن كل من ابتلي بميراث الشرك عن أبويه وعن كبراء قومه، وكان مع ذلك صادقا في طلب الحق سالم النفس من الأهواء، فسيعلم لا محالة – بموجب الفطرة التي فطره الله عليها – أنه على باطل وأن قومه ليسوا على شيء، وسيجد نفسه تلح عليه بذلك، ولن يحتاج إلى من يدفع عنه "الشبهات" (أو بالأحرى: زخارف القول التي يزين بها القوم الدين الباطل فيما بينهم) أو يرد عليها ردا مفصلا بين يديه حتى "يقنعه" بهذا الأمر! بل سيجد أنه يعلمه علم اليقين من غيرما اكتساب ولا نظر! فإن سمع من هذه حاله بأن رجلا جاء يدعو الناس للتوحيد، ويزعم أن رب العالمين قد أرسله بدين التوحيد، فوالله لن يتخلف عن الخروج من ماله وأهله ولن يستثقل شيئا في سبيل السماع منه والتلقي عنه مباشرة، وسيهون عليه كل شيء حتى يلقاه! ذلك أن الفطرة تخبر كل عاقل بأن رب السماوات والأرض أعظم شأنا وأجلّ وأرفع قدرا من أن يهان بعبادة غيره من دونه، أو بجعل بعض خلقه شركاء له وأندادا، وبأنه سبحانه أعظم من أن يُطلب من بعض خلقه ما لا يملكه أحد سواه، وتخبره بأن الحمد لله رب العالمين، وحده لا شريك له!

فلما بين له عليه السلام أن هذا (أي التوحيد) هو ما يدعو إليه الناس، لم يقابله بقوله: "بلغني أنك تأمر الناس بكذا وكذا مما أكره وتنهاهم عن كذا وكذا مما أحب، فما جوابك؟"، وإنما دخل في الإسلام من فوره، وما ذاك إلا لأنه علم أنه يقف بين يدي رجل يدعو إلى الملة الوحيدة التي علم في نفسه يقينا أن ربه ما كان ليقبل من العباد سواها، ألا وهي ملة التوحيد الخالص! ولهذا لم يثنه علمه بأنه لم يتبعه إلا القلة المستضعفة حينئذ، صلى الله عليه وسلم، عن أن يتبعه ويدخل في دينه، رضي الله عنه وأرضاه! وهذا ما به يمتاز الصادق من الكاذب! آمن الرجل بالنبي عليه السلم – كما ترى – من قبل أن يسمع من القرآن شيئا أصلا! فإذا حصل له ذلك بفضل الله ومنته، لم يزل يسمع من الدين وأحكامه الجامعة للخير كله ولكل مستحسن في الفطرة من الخصال، ما يزيده يقينا فوق يقينه وإيمانا مع إيمانه! ذلك أن حجية القرآن تقوم على أساس من فطرية وبداهة موضوع الدعوى التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم وقام عليها دينه، وأنه موضوع لا يماري في صحته إلا مكابر خراص! فلما جاء الكتاب على مقتضى ذلك المعنى، لم يزدد العقلاء الأسوياء بسماعه إلا إيمانا وتصديقا! قال تعالى: ((وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ

قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)) [البقرة : ١١٨] وقال تعالى: ((وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)) [الجاثية : ٤] وقال تعالى: ((وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)) [العنكبوت : ٤٣]

فعندما يأتيك من المشركين من أمة الدعوة من يقول لك نحوا من هذا: "إنني لا أدري هل الإسلام حق أم لا، قد سمعت القرآن وقرأته كله من أوله إلى آخره، لكنني لما رأيت جرائم الإرهابيين والمتطرفين، قلت لا يمكن أن يكون هذا هو دين الله!" عندما يأتيك رجل بمثل هذا الكلام فاعلم – من قبل أن ترد عليه – أنه صاحب هوى عظيم، وأنه ليس صادقا في طلب الحق مهما زعم ذلك لنفسه! فإنه لا يسمع القرآن، بل لا يسمع بعض القرآن، قلب صادق في طلب الحق والهداية، ومع ذلك تصرفه عن قبوله أمثال تلك الأوهام والذرائع! هذا محال! بل لابد أن يحمله صدق نفسه على الدخول في هذا الدين لما يجده فيه من التوحيد الخالص، وعلى تطهير اعتقاده من الشرك الذي طالما صرخت فيه نفسه ببطلانه وفساده، يسارع إلى ذلك كالغريق المتعلق بطوق النجاة، وهو – من أجل ذلك – موقن بأن ما جاء به الرسول هو الحق، وأنه مهما اتهمه المشركون بشيء فهم كاذبون خارصون لا محالة! وإذن يبصره الله بوهاء تلك السخافات ضرورة، وإن لم يسمع لها جوابا مفصلا!

فإنه إذا انشرح الصدر للتوحيد الذي هو حق الباري على مخلوقيه، نزلت التكاليف والأخبار كلها في تلك النفس بعد ذلك – لا قبله – منزلها الصحيح، فلا تستثقل تكليفا ولا تستبعد خبرا! وإذا بالمرء يرى الوسط وسطا، والطرف طرفا، ويرى التفريط تفريطا والإفراط إفراطا، فضلا من الله ومنة! وإذا به يكون كما قال عليه السلام لوابصة بن معبد رضي الله عنه: "البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس" أو كما قال! ولهذا لم يبدأ رسول من الرسل دعوته لقومه إلا بتأسيس التوحيد أولا، كما كان من نبينا صلى الله عليه وسلم في مكة قبل الهجرة، فإنه (أي التوحيد) ليس هو عمود الدعوة وأساسها وحسب، وليس هو أول ما يجب تعلمه من الدين على المكلفين وحسب، بل إنه هو دليل العقل الأول على صحة الملة نفسها من الأساس! تؤسس النفس عليه وتعبد به لربها وتطبع على توحيده وتعظيم شأنه وحده أولا، فإذا ما تم لها ذلك، واستغرقت النفس في إشباع دواعي الفطرة والجبلة الأولى فيها في هذا الشأن الغيبي العظيم، بتعلم الحق

الجلي الواضح الذي لا تطمئن النفس السوية لغيره، لم يكن من شيء في الأرض أحب إليها – بعدئذ – من الانقياد والخضوع لأمر النبيء ونهيه وتكليفه، ولا شيء أبغض إليها من مخالفته أو التقديم بين يديه أو الرد عليه! أما أن يمكث الداعية إلى الله لشهور بل ربما لسنوات متطاولات، يناقش ويناظر رجلا مشركا يرجو هدايته، كلما ألقى إليه شبهة أجابه، ثم أخذ معه ورد في ذلك الجواب نفسه ما شاء الله، وكلما قذف في وجهه بتهمة لله ورسوله والمؤمنين رد عليها، وهو مع ذلك السجال والمراء يراه "طالبا للحق" أو "باحثا عن الحقيقة"، فهذا والله هو العبث بعينه، وليس من طريقة المرسلين في قليل ولا كثير!

يا هؤلاء إن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يدع الناس لفلسفة عميقة الغور تفنن فيها من عند نفسه، ولا لنظرية دقيقة المأخذ تحار فيها الفلاسفة، حتى يقال إنه قد يخفى وجه الحق في دعوته على كثير من العقلاء، ولا يظهر لهم إلا بعد شرح ومناقشة للنظريات والفلسفات، ورد على الاعتراضات والاتهامات! وإنما دعاهم – وهو الأمي الذي لم يكن يقرأ ولا يكتب – إلى ما يعرفون في بواطن نفوسهم أنه الحق وجوبا وضرورة، إذ كان دينه هو الدين الوحيد الذي يدعو الناس إلى عبادة ربهم وخالقهم وحده لا شريك له، يتزهه تمام التتريه عن كل نقص، وينهى أشد النهي عن كل فعل بشري يقتضي نسبة النقص إليه سبحانه، أو يمكن أن يتذرع به إلى ما يقتضي التنقص منه جل شأنه!

فلا تغشوا الناس ولا تطيلوا عليهم الطريق، تحولون بدهيات الملة وأصولها الأولى التي عليها تقوم حجية القرآن نفسه إلى مادة للرأي والجدل، فإنه لا يعقل في هذا الدين (بمجرد الوقوف على معرفة موضوعه إجمالا) إلا أن يكون هو الحق المحض، مهما أفسد المنتسبون إليه ما أفسدوا، ومهما ضل منهم عن جادته من ضل، لأنه قد ركب في جبلة بني آدم تركيبا أن رب العالمين ما كان ليقبل من أحدهم دينا غير دين التوحيد الخالص الذي يتزله سبحانه متزلته التي تليق به، جل شأنه! فلا يلزم الداعية إلى الله تعالى أن يتتبع كل تهمة من تلك التهم الباردة لدين الإسلام التي يتترس بها المعرضون من أهل الملل، يبطلها بين أيديهم بما يحبون ويشتهون من أنواع الأدلة حتى تقوم عليهم الحجة الرسالية، كما يتوهمه كثير من الناس، والله المستعان!

فوالله ليس أدل في العقل ولا في النفس السوية على صحة دعوى التوحيد من كونها هي دعوى التوحيد! وليس في الأرض دعوى هي الدليل على صحة نفسها، على عظم ما ضلت عنها أمم في الأرض شتى، إلا دعوى التوحيد! وليس من دليل على صحة دين الإسلام ونسبته إلى رب العالمين أظهر من كونه هو الدين الوحيد الذي يدعو إلى تمام التوحيد! ولا يماري في ذلك إلا مماحك مريض!

والقصد أن هذا التذكير البليغ في مستهل القرآن بهذه الحقيقة البينة: أن الحمد الكامل التام مستحَق لرب العالمين، يأخذ بتلابيب المخاطبين من أولي النهى والأبصار، يجتذبهم اجتذابا، ويمهدهم لما يأتي بعد من خطاب عظيم! ووجه حجيته العقلية (في نفسه) أنه مطابق لما في فطرة البشر من تعظيم وإجلال لرب البريات، ومن شهادة له باستحقاق الحمد المطلق والثناء البالغ منتهاه، وأنه يقدم للنفس المتلهفة للحق ما تبحث عنه من أول كلمة في الكتاب! أي أن مجرد سماع هذه الآيات وفهم ألفاظها العربية المبينة يوجب على كل سامع عليم بلسان العرب أن يشهد من فوره بأن موضوعها حق لا مرية فيه، فلا يجادل في صحة هذا الموضوع إلا مكابر مجرم فاجر، ولا يزعم افتقاره إلى برهان إضافي خارج عن ألفاظه تعرف به صحته إلا كذاب أشر!

ثم إنه – أي هذا المعنى المحرر في تلكم الآيات – ليس كغيره من المعاني الصحيحة في نفسها، التي تكفي حكايتها للقطع بصحتها! أي ليس موضوعه البدهي كما سواه من القضايا البدهية التي يشهد العقل بصحتها بمجرد فهم ألفاظها! فعندما يقال لك، على سبيل المثال: "إن نور النهار يأتي من الشمس"، فمع أنك لا تكذب القائل ولا ترد عليه كلامه ولا تطالبه بالدليل (إلا أن يكون فيك من أمراض النفس وفساد ميولها ما يجنح بك إلى تكذيبه)، إلا أنك لا يحصل في نفسك من التأثر بسماع تلك الحقيقة والانفعال بها، نظير ما يحصل عندما تسمع مثل قول الله تعالى "الحمد لله رب العالمين"، ولا قريب منه! ذلك أن موضوع الحقيقة الأولى لا يعدو أن يكون جرما من أجرام السماء، يشرق ويغرب، يظهر ويأفل، وهو مخلوق ضئيل مهما عظم، من جملة مخلوقات ملك الملوك جل وعلا، كما تعرف ذلك في نفسك يقينا! وأما موضوع الحقيقة الثانية، فهو رب العالمين نفسه، والحقيقة نفسها التي ذكرها النص هي استحقاقه سبحانه لكل حمد، وحده لا شريك له! فكيف يكون سماع العاقل

سوي النفس وتلقيه للحقيقتين على قدم السواء، وكيف يتصور أن يترل السماعان من نفسه المترلة نفسها؟ هذا غير متصور أصلا!

فهو مع كونه تذكيرا بحقيقة معلومة صحتها بالبداهة والفطرة، إلا أنه ليس تذكيرا بقضية هينة في موضوعها، أو بمسألة قليلة الأهمية في حياة الإنسان، قد لا يبالي سامعها بها، أو لا يضيره ألا يلتفت إليها أو حتى أن يكذب بها! وإنما هي بلاغ وتذكير بأعظم ما يمكن أن يكون موضوعا لسؤال أو خبر أو خطاب أو بلاغ على الإطلاق! فهي قضية هو (أي المتلقي) يعلم في باطن نفسه بأن مصيره الأزلي فيما بعد الموت (هادم المللذات الذي يعلم يقينا أنه آتيه بعد أجل لا يعلمه)، متعلق بها متوقف عليها! ليس هذا وحسب، بل هو يعلم أنه لو مات الآن (وهو ما لا يأمنه أبدا) فسيترل به الآن وفورا ما كان يحذر ويخاف في باطن نفسه، إن هو استهان بتلك القضية وتهاون فيها على عظمها!

فالذي يصدق مع نفسه ويعظم هذه المسألة كما هو حقها أن تعظم، فوالله لن يهنأ له نوم ولن يغمض له جفن من ليلته، ولن يجد لذة في مطعمه ولا مشربه ولا منكحه حتى يأمن فيها على نفسه قبل أن يأتيه أجله! ينام وهو لا يدري ما يحل به إن مات في نومه؟ يأكل ويشرب ويلعب وهو لا يأمن على مصيره بعد موته إن مات على ما هو عليه؟ كيف يصح في عاقل صادق سليم النفس أن تكون هذه حاله، وأن يبيت عليها؟ بل والله لا يكون هذا إلا معرضا لاهيا غافلا غارقا في غفلته حتى الثمالة، لا يرجى له فيء ولا يرجى منه خير!

ولهذا جاء القرآن على هذا النظم الذي تراه لا على غيره، وعلى هذه الأنواع من الحجج العقلية لا على غيرها، لأن الذي لا تنخلع نفسه خوفا من الموت على ذلك الموقف الشنيع من خالقه وخالق كل شيء سبحانه، ولا يرى في موضوع القرآن ومادته فضلا نوعيا على غيره من موضوعات الكتب التي بين أيدي الناس (كما زينته الفلاسفة أن يكون هو ميزان الكافة من أتباعهم وتقديرهم لمنازل القضايا المعرفية على اختلاف موضوعاتها)، هذا لا يخاطب إلا بالقرع على رأسه وبالوعيد الشديد، كما هو طافح به كتاب رب العالمين! فالذي يزعم أنه لا يجد حجة القرآن لائحة أمامه بمجرد سماعه

وفهم معاني ألفاظه، هذا يظلم نفسه ظلما لا يعدله ظلم في العالمين، وسيشهد على نفسه يوم الدين بأنه كان من الكاذبين المستكبرين!

لقد علم العقلاء كافة أن قضايا العلوم ليست على درجة واحدة في مقدارها وخطورتها وأهميتها، وليس كل موضوع من موضوعات المعرفة يستحق من الإنسان ما يستحقه غيره من العناية به وبذل الوقت والنفس والوسع في البحث فيه! وليس كل خبر عن أمر مغيب عن الإنسان، يكون محتاجا فضلا عن أن يكون مضطرا للسؤال عنه وطلب العلم به! وهذه مسألة يعرفها العاقل بداهة! ولكن قد تأسست أكاديميات الفلاسفة من قديم على إهمال هذه الحقيقة الجلية الواضحة، وعلى التسوية في المنزلة والقيمة بين جميع مطارح السؤال والبحث في عالم الغيب وفي عالم الشهادة على السواء، وعلى طرح البدهيات كلها للأخذ والرد والنظر والجدال فلا يبقى شيء يدعي الإنسان معرفته إلا جُعل محلا للنظر والاستدلال عليه بدليل مستقل! فأصبح لا يجتمع ثلة من الناس على أن يطرحوا مسألة من المسائل للبحث والمناقشة والمناظرة، أيا ما كان موضوعها، إلا لزم "المجتمع الديموقراطي اليوناني" أن يقبل منهم ذلك، وأن يسمح لهم بتأسيس الأكاديميات والجامعات لبحث تلك المسألة ودراستها، وأن يتخذوا لها أساتذة وعلماء ومتخصصين في تدريس ما تراكم لديهم من نتاج البحث والمناقشة والمناظرة والجدال فيها، وأن يستجيزوا ذلك كله أيا ما كان موضوع المسألة نفسها، وإن كان هو أوضح الواضحات وأظهر البدهيات على الإطلاق! كل المسائل والموضوعات عند الفلاسفة سواء في هذا المعنى وفي تلك المثابة! وكلها عندهم مثارات للنظر والاستدلال النظري والأخذ والرد والبحث الطويل، فلا ينتهي فيها أحد إلى شيء إلا لزمه أن يقبل – مبدئيا – ظهور المخالف فيها واعتراضه إياه بالرأي والنظر المقابل!

وهذا ولا شك من أعظم آفات الفلسفة الأكاديمية التي ورثها المجتمع الغربي عن فلاسفة اليونان، وتابعتهم عليها الأمم من بعدهم إلا ما رحم ربنا وعصم! فمن المسائل عند العقلاء ما هو بدهي صحيح بنفسه لا يفتقر إلى دليل خارج عنه يكسب النفس المعرفة به من بعد عدمها، ولا يصح – خلافا لهؤلاء – أن تطرح بداهته تلك للجدال والنزاع، وإلا ساح العقل وضاع! ومن المسائل – في المقابل – ما هو نظري خفي دقيق يحتاج إلى أخذ ورد وتدقيق حتى تميل كفة البحث لصالح الظن

الراجح فيه! ثم إن من أنواع المسائل ما هو عظيم الشأن جليل المترلة خطير للغاية، يتعلق عليه مصير ابن آدم من بعد موته وإلى الأبد، ومنها ما دون ذلك بفراسخ! فليس كل ما يطرح للبحث والنظر من أنواع المسائل يستحق أن يبذل الإنسان فيه الوقت والعمر والمال حتى ينتهي فيه إلى شيء ما! المسألة العظيمة الخطيرة (في حياة الإنسان وفيما بعد موته) يأتي طلب العلم بها والسؤال عنها مقدما على المسألة الدقيقة الهينة الأدنى في المترلة، وهذا مما عرفه الناس بداهة واضطرارا!

وإلا فإن العمر قصير، والزاد قليل، واليوم الذي يمضي لا يرجع إلى يوم الدين! وما أكثر ما غاص فيه الناس من مسائل ومباحث ودراسات أكاديمية منشورة ومحكمة بالغة العمق والدقة والتعقيد، مع أن الجهل بها لا يضر والعلم بها لا يفيد! وأصحابها على غرقهم فيها وانشعابهم في شعابها وانفراطهم في طرقها وبذلهم فيها غاية البذل، تجدهم عندما يطرح الكلام في الدين وفيما يؤول إليه مصير أحدهم بعد موته، يعرض بوجهه ويولي مستبكرا ولا يبالي وكأن الأمر لا يعنيه أصلا! هؤلاء قد وصف الله تعالى حالهم أبلغ وصف وأحسنه – وهو أعلم بهم من أنفسهم – إذ قال جل شأنه: ((وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)) [الزمر : ٤٥] ولهذا ذم رسول الله صلى الله عليه وسلم التنطع وأهله ونهى عن التعمق بالسؤال، لأنه مما يحلو للشيطان أن يغرق فيه الناس، يفتن به مرضى القلوب!

فعندما يأتي القرآن بالخبر عن رب العالمين وعن الآخرة، ذلك الخبر الأعظم والأخطر والأجلّ على الإطلاق، الذي تتشوف له النفوس الصحيحة السوية، وهو يدعو المخاطب به لما تخاف به نفسه من الموت على ملة يشتم بها ربه ويحط عليه، سبحانه وتعالى وتقدس، فلا شك أنه إن كان عاقلا حقا، سوي النفس حقا، صادقا في طلب الحق كما يزعم، فسيجزم من فوره، بمجرد أن يسمع ألفاظ القرآن، بأن الهداية التي جاء بها لابد أنها لا يعدلها شيء، ولا يعرض عنها ولا يكذب بها إلا مريض مكابر، وأنه لابد وأن يكون هو الحق المبين! لماذا؟ لأنه يعلم في فطرته من قبل السماع بأن رب السماوات والأرضين ما كان ليرتضي غير التوحيد الخالص دينا من المكلفين! وسيعي – لا محالة – شناعة الجرم الذي يرتكبه الطواغيت المتألهون ومن عبدهم أو اتبعهم من المجرمين! وسيقطع من فوره بصحة ما جاء به القرآن من بيان أحوال أولئك المكذبين والمعرضين وتعظيم الوعيد في حقهم أجمعين!

وسيسجد لله شكرا على أن لم يجعله منهم، وسيشهد بعظيم ذلك الفضل وتلك المنة من الله تعالى، التي لم يملك فيها لنفسه شيئا، أن جعله من المهتدين ومن أتباع سيد المرسلين، فالحمد لله رب العالمين!

ولهذا لما خرج مسيلمة الكذاب – لعنه الله – يزعم أنه قد أوحي إليه بمثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ثم لما سئل عنه قال: "يَا ضِفْدَعُ بِنْتُ ضِفْدَعِينَ، نِقّي كَمْ تَنِقّينَ، أَعْلَاكِ فِي المَاءِ وَأَسْفَلُكِ فِي الطِّينِ"، صار مادة للهزل والضحك عند العقلاء بما جاء به، وإن كانت لغته تشبه لغة القرآن! لماذا؟ لأنه جاء بكلام تافه لا قيمة له، كما لا يخفى! ولما أراد أن يأتي بموضوع ذي بال، وجدته يكرر ما سبقه إليه القرآن ولكن بنظم هزيل ناقص كقوله فيما يروى في كتب التواريخ: "ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، ما بين صفاق وحَشا"! فبالله أين هذا من أمثلة القرءان في نفس الأمر؟ الله تعالى ضرب المثل في كتابه بالماء المهين الذي خلق منه بشرا فجعله نسبا وصهرا، وبالنطفة التي يصيرها في الأرحام علقة ثم مضغة ثم يكسوها لحما، يصور في الأرحام ما يشاء، فلما ذكر رب العالمين ما يكون في الأرحام، جاء فيه بما يأخذ بتلابيب العقلاء ويحصل منه الغرض من ذكر تلك المسألة في كل مناسبة ذكرت فيها على أكمل ما يكون، أما قول الكذاب "ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى" فاجتزاء من تلك الآية العظيمة لا وجه له! ولما أخذته الشهوة وأراد أن يستعبد النساء لنفسه من دون الله، زعم أن الله أوحى إليه بقوله: "إنكن معشر النساء خلقتن أفواجًا، وجُعلتن لنا أزواجًا، نولجه فيكن إيلاجًا."! فلا يخفى على عاقل أن الكلام كلام رجل مسفّ، بلغ به إسفافه وحماقته أن نسي أنه يكتب كلاما ينسبه إلى رب العالمين، فتكلم بلسان نفسه وقال "لنا" و"نولجه فيكن"، وإذا به يكتب كتابا لا يربو في قيمته كثيرا على الكتب الصفراء التي تباع على الأرصفة!

ولا عجب! فالذي يزعم أنه جاء بمثل القرآن، فيقينا لن تجد عنده إلا موضوعا تافها لا قيمة له، أو باطلا بين البطلان، أو متناقضا يهدم أوله آخره، أو أحسن أحواله أن يكون ناقلا من القرآن نفسه بتصرف وتلاعب على نحو من الأنحاء، يهبط بقيمته البيانية هبوطا بينا لا محالة! فمهما عمل فلن يأتي بمثل القرآن ولو جمع إليه الثقلين جميعا، ((قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)) [الإسراء : ٨٨] وهذا التحدي هو أيضا من

المعاني التي تعرف صحتها بداهة، فليس يقدمه القرآن للناس حتى يدعوهم لتكلف إجابته، وكأنما يدعو المشركين كافة لألا يجعلوا لهم شغلا إلا السعي في سبيل الإتيان بمثله! فقد عُلم بالبداهة أن موضوعه هو أكمل الموضوعات وأهداها وأصدقها في مطابقة الفطرة في أمر الغيب وما فيه، فلا يؤتى بخير من موضوعه ولا بأهدى منه ولا يتصور جواز ذلك، ولا يزعم أحدهم الإتيان بمثل موضوعه إلا أن يكون قد جاء بعين موضوعه في أحسن أحواله، وهذا يكون إذن ناقلا منه ولا يكون قد جاء من عنده بمثله! وأما ما سوى ذلك من موضوعات الكتب فهو دونه في القيمة قطعا مهما كان حقا مطابقا للواقع، وهذه قضية بدهية لا مرية فيها! أي موضوع هو أحرى بأن يعتني به البشر من العلم بالغاية التي من أجلها خلقوا في هذا العالم ومن أجلها كتب عليهم الموت حتما مهما عمروا؟ وأي خبر في هذا الموضوع هو أوفق للفطرة من الخبر الذي جاء به ذلك الكتاب؟ فمن تدبر في هذا المعنى، أدرك أن مجرد إيراد التحدي المطلق على هذا النحو، هو في نفسه حجة ظاهرة على المخاطبين بالقرآن، لأن العاقل سوي النفس يعلم ويشهد من فوره بامتناع الإتيان بمثله مطلقا، بصرف النظر عما تكلفه السفهاء أمثال مسيلمة هذا أو غيره من محاولات في ذلك! أي أنه لا يحتاج الداعية إلى الله إلى أن يجمع ما تكلفه الناس في جواب ذلك التحدي ثم يبين تهافته كله حتى يثبت لهم أن الله صادق في حكمه بامتناع الإتيان بمثل كتابه ولا بسورة من مثله، فتأمل!

ومن المحاججة بالتذكير، قول الله تعالى: ((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ)) [آل عمران : ١٩٠]، فمن وجد في حقيقة كون السماوات والأرض على ما هي عليه، وفي اختلاف الليل والنهار على نظامهما الثابت الرتيب، علامات لا تخطئها العين على صحة ما في الفطرة من إقرار بوجود الباري وكمال ربوبيته وقيامه على أمر الخلق، فهذا من أولي الألباب، وإلا كان من السفهاء، أيا ما كان مانعه من قبول هذا الحق. مهما قال إنه لا يرى "وجه الدلالة" أو لديه "شبهة" لاحتمال أن يكون ذلك كله من غير صنع الباري جل وعلا، فهو من السفهاء قطعا!

وسفاهة مثل هذا لا تزول بتقديم البراهين النظرية على طريقة الفلاسفة وأهل الكلام، فإن هذا من علاج السفاهة بسفاهة مثلها، ومن الإغراق في نوعها! وإنما تزول – إن كان يرجى لها أن تزول –

بمثل ما جاء به القرآن من إخراج ما في نفوس هؤلاء وإشهادهم عليه وترهيبهم من عقوبة الترسل فيه وترك معالجته! فإن لم تزل سفاهته ولم يشف مرض قلبه ولم يفئ لرشده بذلك فيكون قد قامت عليه الحجة العقلية الكافية التي لا مزيد عليها ولا يبقى له معها عذر، بما سمع من التذكير بآلاء الله جل شأنه. ومن لم يعظه القرآن فلا واعظ له! فالله تعالى ما زاد في هذا الموضع على أن ذكر المخاطبين بالقرآن ببعض آلائه الظاهرة الجلية التي يعلمون في فطرهم أنها من صنعه جل شأنه وحده لا شريك له، فإن اعترفوا بذلك وأقروا به والتزموا لازمه الذي يدعوهم إليه الرسول (ألا وهو عبادة الله وحده لا شريك له)، فهم من أولي الألباب المنتفعين بعقولهم وبما بث الله في السماوات والأرض من آيات، وإلا فلا عقل لهم ولا خير فيهم، والحجة قائمة عليهم بمجرد بلوغ الخبر!

ومنه قول الله تعالى في الثناء على المؤمنين: ((الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)) [آل عمران : ١٩١]، فوجه محاججة المخاطبين هنا هو حقيقة أنه لا يخفى على أسوياء النفوس منهم فضل من يذكرون لربهم وخالقهم فضله ونعمته ويتفكرون في خلقه ما خلق على اختلاف أحوالهم، فيحضر في نفوسهم ما جبل الناس عليه من الشهادة بأن خلقا كهذا لا يصح أن يكون قد خلق باطلا أو عبثا، ويسبحون ربهم وينزهونه عن ذلك! فمن ذُكِّر بهذا المعنى الفطري الواضح ولم يجد في نفسه ما يخجله من ألا يكون مع هؤلاء الذين أثنى الله عليهم بتفكرهم في عظيم آلائه وواسع ملكه، فهذا سفيه لا عقل له! ووجه سفاهته ليس في أنه لا يفهم هذا المعنى أو لا يدركه أو يحتاج لمن يفسره له ويوضحه، وإنما في كونه يجد في نفسه ما يمنعه من الانتفاع به ومن العمل بمقتضاه، على جلائه ووضوحه!

فهذه معان يقال فيها إن تفسيرها تلاوتها، أي أنها لا تحتاج إلى شرح أو توضيح ما دامت على لسان المخاطب بها ولغته، حتى تحصل الثمرة المقصودة من الخطاب بها في المخاطبين! فمن فهمها بلسانه ولغته فلا يحتاج لمن يثبت له صحتها بدليل ما حتى تحصل الهداية في نفسه من أثر سماعها، إلا أن يكون مصابا بما يمنع من حصول تلك الثمرة المباركة من أنواع الأهواء المانعة، فيشترط ذلك الدليل المزعوم تنطعا ومراءً! وهذا يكون العيب في نفسه والنقص فيه هو لا في حجية هذه الآية المباركة ونحوها، وليس شفاؤه من ذلك النقص والسقم إلا فيما جاء به القرآن من الحجج والآيات

الباهرة، إن كان يرجى له الشفاء! أما أن يساق إليه ما يشترط من الأدلة المتكلفة من هذا الصنف أو ذاك، فلا يزيده ذلك إلا مرضا فوق مرضه!

ومن المحاجة بالتذكير كذلك قول الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)) [النساء : ١] فالعاقل سوي النفس لا يحتاج إلى أكثر من أن يذكر في هذا المقام بأن ربه الذي خلقه من أب وأم، وبث الرجال والنساء بعضهم من بعض، وصولا إلى نفس واحدة وزوجها، هذا جدير بأن يتقى حق التقوى وأن يقدر حق قدره، سبحانه وتعالى! فمجرد التذكير بهذا المعنى تقوم به الحجة على كل سامع، وتحصل به الهداية لمن خلت نفوسهم من الموانع، فمن يؤمر بتقوى من هذا وصفه وتقديره حق قدره، فلا يبقى له من عذر إن لم يتقه والحالة هذه، والحمد لله رب العالمين.

ومنه قوله تعالى: ((لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [المائدة : ١٧] فسبب حجية هذه الآية هو معرفة النصارى معرفة فطرية بدهية بأن الرب الذي خلقهم وخلق المسيح وأمه، لا يعقل أن يكون هو المسيح نفسه، ولا غيره من البشر المخلوقين، وإن كان المسيح قد خلق من أم بلا أب! فلا تزيد الحجة هنا على تذكيرهم بهذا المعنى الجلي وتقريعهم وتبكيتهم لمخالفتهم إياه، من طريق السؤال للاستنكار والتوبيخ! فليس وجه البطلان والفساد في ذلك القول الذي من أجله بكتهم القرآن، مما يلجئ إلى نظر أو استدلال أو اكتساب أو يتسع للجدل والمراء، فتأمل!

ومنه قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)) [الشعراء : ٧-٨]، فمجرد التدبر في طلاقة قدرة الباري في هذه الأرض ووفرة ما فيها من أزواج متباينات ومن أنواع مخلوقة لا يطالها الحصر، هذا يتذكر به الإنسان العاقل ما لربه من منزلة لا تليق إلا به، وما له عليه من حق ألا يتخذ له من خلقه ندا ولا كفؤا ولا وليا من

الذل ولا شريكا في الملك ولا صاحبة ولا ولدا! ففي الآية تذكير للمخاطبين من أمة الدعوة بهذا المعنى، وإقامة الحجة الدامغة بذلك، مع تقرير أن هذه الآية ونحوها من آلاء الله في خلقه، على جلائها ووضوحها الباهر، إلا أن أكثر الناس ما كانوا ليؤمنوا بها!

وكذلك قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)) [العنكبوت : ١٩]، فهم لا يزال أحدهم يرى الخلق يبدأ ويعاد في كل نسمة تولد على الأرض، ويرون بأعينهم كم هو يسير على الله ذلك الخلق، هين عليه موفور في الأرض وفرة بالغة لا يحيط بها عقل إنسان! وهذا أمر يعرفه الإنسان بداهة، إذ لا يزال الله يعيد الخلق في كل أنواع المخلوقات في كل مكان من الأرض، ما علمنا منها وما لم نعلم! فإذا ما ذكَّر العاقل بهذا المعنى على هذا النحو البليغ البديع، قامت عليه الحجة به، وتذكر ما هو مغروس في فطرته من الشهادة للرب بتوحيد الربوبية، وما يقتضيه ذلك من توحيد الإلهية. هذا ما به يحصل المطلوب في نفس السامع فورا، دونما قياس أو استنباط ودون حاجة إلى بحث أو نظر!

ومن ذلك الصنف من المحاججة الباهرة، جملة من الآيات في سورة النمل، لوما أنزل الله غيرها لكفت! قال تبارك وتعالى: ((قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ . بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ)) [النمل : ٥٩-٦٦]

فتأمل كيف يبدأ النظم بتذكير السامع بأن الحمد كله لله رب العالمين، ثم ينتقل سبحانه إلى التسليم على النبيين المصطفين من عباده، ثم يسأل المخاطبين بالقرءان سؤالا غرضه التشنيع البالغ على المشركين وتقبيح صنيعهم: آلله خير أم ما يشركون؟؟ آلله أحق بالعبادة والتأليه أم ما يعبد المشركون من دونه؟ فأما من كان من المخاطبين مؤمنا قد سبق له الفضل بالإيمان والتسليم، فسيترل هذا الكلام على قلبه مترلة التذكير بالمنة الربانية أن نجاه الله تعالى وسلمه من تلك النحلة الشنيعة، نحلة الشرك برب العالمين! وأما من كان منهم مشركا في قلبه شيء من الهوى قد أخره عن قبول الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فمن شأن هذه الآيات البديعة أن تهز قلبه هزا وتخلعه خلعا، تشعره بالخجل البالغ إذ علم من الله ما ذكره به سبحانه وزيادة، ومع ذلك لم يقبل الدخول في دين الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يسلم لرب العالمين! وأما من كان مشركا من عتاة الشرك المستكبرين، فستقوم بها الحجة البالغة عليه، لأنه يعلم صدقها بالبداهة، ولن تزيده – مع ذلك – إلا طغيانا واستعلاء على المؤمنين! فسبحان الذي لا مزيد على كلامه في تحصيل مقاصده من نفوس السامعين!

تأمل كيف يمضي جل شأنه في توبيخ المشركين والتشنيع عليهم بشركهم، يذكرهم بالآية العظيمة من آياته في صنعه التي يعلمون بالبداهة أنها لا يقدر عليها إلا رب العالمين وحده، ثم يسألهم مستنكرا لعلهم يخجلون: الذي صنع هذا كله وحده، كيف تتخذون معه إلها؟ أإله مع الله؟؟ ثم يذكر الآية التالية التي هي أعظم من أختها، ثم يكرر سبحانه سؤال الاستنكار والتشنيع: أإله مع الله؟؟ يا للشناعة ويا للعجب! ثم يكرر ذلك النظم بضع مرات، فيثبت في كل مرة صفة للمشركين تليق بمن يستجيز الشرك ويبقى عليه وقد علم من آيات الله ما علم، يقول: بل هم قوم يعدلون وأكثرهم لا يعلمون، وقليلا ما يتذكرون، تعالى الله عما تشركون .. إلخ!

وتأمل قوله تعالى "قليلا ما تذكرون"، لم يقل قليلا ما تبحثون أو تستنبطون أو تقيسون وتنظرون، وإنما قال: ما تذكرون! ومعنى التذكر ووصف القرءان بأنه تذكرة يأتي كثيرا في كلام الله جل شأنه، كما في قوله: ((وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)) [الحاقة : ٤٨] وقوله: ((إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى)) [طه : ٣] وقوله تعالى: ((وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)) [الحجر : ٦] وقوله ((إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً)) [المزّمّل : ١٩] وقوله عز من قائل: ((كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ)) [المدّثر

: ٥٤] وقوله: ((فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ)) [المدّثر : ٤٩] وغير ذلك. ذلك أن الذي يماري فيه المشركون ويكفرون به وإليه دعاهم المرسلون كافة، ليس دعوى نظرية تحتمل الخفاء والأخذ والرد والبحث والنظر، وإنما هي حقيقة بدهية ظاهرة لا يماري فيها عاقل سوي النفس، وهي أن الله وحده هو خالق كل شيء، وهو إذن المستحق للعبادة وحده لا شريك له! فالذين يعدلون بربهم يتخذون له أندادا، هؤلاء لو تأملوا فيما هم عليه من الدين بصدق وتجرد لجزموا بأنهم ليسوا على شيء، وإنما تأخذهم الغفلة وتغرق بهم شهواتهم وأهواؤهم في ملهاة الدنيا فلا ينتبهون لما هم عليه من اعتقاد فاسد إلا قليلا!

فإذا جاءهم خطاب القرءان، فمنهم من تملأ عليه الأهواء قلبه، ويرى أنه يفوته من الأمور المحببة إلى نفسه ما لا يطيق فواته، ويتعرض من المكاره لما لا يصبر عليه، إن اختار أن يتحول عن دينه ويفارق ملة الآباء، فهذا تراه يعرض عن الذكر بعد إذ جاءه، ولا يلقي له بالا، أو تراه يستكبر على قبوله والدخول فيه، لأنه يكره ما يقتضيه التسليم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم في حقه من وجوب الانقياد والطاعة في حقه من بعد أن كان سيدا متبوعا مطاعا في الناس! ومنهم من تخلو نفسه من الأهواء الصارفة، ويكون قد سبق في قلبه من الطمع في الهداية وفي توحيد خالقه بالعبادة وحده ما يجعله يسمع الذكر إذا ما جاءه وكأنما وجد ضالته المنشودة، فلا يتلقى القرآن إلا كما يقبض الغريق على طوق النجاة، لأنه يعقل ويدرك أن ما ولد عليه من الدين والملة ومن إرث الآباء في ذلك باطل محض، لا يخفى بطلانه على صبي صغير، وأنه قد سمع – أخيرا – من دعوى الدين ما يشبع به نداء الفطرة في نفسه، ولأنه يعلم أنه محجوج عند ربه بما في نفسه من علم فطري إن أعرض عن دعوة الرسول بعدما جاءته وهو يعلم! فهذا هو العاقل حقا، الذي إذا ذكره ربه تذكر، وإذا وعظه اتعظ، لأنه يعلم عظم الشأن الذي به بعث الله رسله، فيرجو لنفسه أن يكون من الناجين! ولابد أنه كان يجد في نفسه من الميول القلبية ما يجعله ناقما – من قبل – على ملة الآباء، باحثا عن الحق في غيرها، ولا يبالي بالخروج من دينه للدين الحق مهما ترتب على ذلك من مفارقة الأهل والديار وغير ذلك من المكاره!

أما من كان يجد من الأهواء والميول القلبية ما يجعله يكره الخروج من دين الآباء وشركهم والانتقال إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم، فهذا مهما قرئ عليه القرءان فلن يؤمن، ومهما ذكر بما في فطرته من الحق فلن يتذكر، لأن الغفلة والهوى قد طمس بهما على قلبه وقفل عليه قفلا! ففيهم قال جل شأنه: ((فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ)) [المدّثر : ٤٩] وقال: ((وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ)) [الصافات : ١٣]، وقال: ((وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ)) [فاطر : ٣٧] فالله يسمعهم وهو يعلم أنهم لن يسمعوا، يذكرهم بهذا القرآن بما هو مركوز في فطرتهم في ميثاق الذر من معرفة بوحدانية الله جل شأنه، وهو يعلم سبحانه أنهم لن يذكروا ولن يقروا ولن يعترفوا، بل سيعرض المعرض ويستكبر المستكبر يتكلف من ألوان الكذب على نفسه وغيره ما به يسوغ موقفه الباطل حتى يبدو وكأنه على شيء! ولهذا ينبئهم القرآن بأنهم سيعترفون يوم القيامة بما في قلوبهم من موانع الإيمان ويندمون عليها يوم لا ينفعهم الندم، حتى تحيط بهم الحجة القرآنية كما تحيط القلادة بالعنق!

أي أن من كان من قبل محبا للحق، صادقا مع نفسه في العلم ببطلان ملة الآباء وفي كرهها والحرص على الانتقال عنها إلى ما هو أحسن وأرجى للنجاة في الآخرة، أو على الأقل كان من قبل لاهيا غافلا عن أمر الدين جملة، لكنه ليس في نفسه من الأهواء ما يجعله حريصا على البقاء على تلك الحال، كارها للانتقال عنها، فهذا إذا ذكّره الله بذلك الحق الذي يجده في نفسه خلقة وجبلة تذكر، وإذا أسمعه من خبر الغيب ما تقتضي فطرته قبوله وتصديقه، قبل من فوره ولم يتأخر! أما من كان من قبل متشبعا بأهواء تجعله يحب البقاء على دينه كيفما كان ويكره التحول عنه مطلقا أو التحول عنه إلى الإسلام تحديدا، فهذا لن يتحول إلى الحق مهما ذكر به ومهما وعظ وخوف! ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)) [محمد : ٩]! فالصادق مع نفسه الذي إذا ذكر بحق الله عليه تذكر، هذا هو من يستحق الوصف بأنه من أولي الألباب، وأما الآخر فهو الأعمى كما سماه رب العالمين في كتابه في مثل قوله: ((أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ)) [الرعد : ١٩]

والحاصل أن الحجة الرسالية تقوم في الأساس على التذكير بميثاق الفطرة الأصلي والدعوة إلى ما يقتضيه ذلك الميثاق في حق العبد المكلف، مع إمالة نفسه إلى ذلك المقتضى الواضح وصدها عما يخالفه بالترغيب والترهيب، حتى تحصل الهداية لمن كتب الله له العافية والسلامة، ويحصل الاستكبار والإباء والإعراض لمن كتب الله عليه الهلكة والندامة يوم القيامة، ولله الحكمة البالغة والحجة الظاهرة، والحمد لله أولا وآخرا!

ثانيا: المحاجة بضرب المثل

وهي فرع عن المحاججة بالتذكير، بيد أنها تزيد عليها بذكر النظير المماثل لمزيد من الإشعار بجلاء الحق ووضوحه وشناعة الكفر به. وذلك أن ضرب المثل يحرك الذهن، وينشط النفس، ويجمع إلى القضية البدهية المراد التذكير بها، قضية بدهية أخرى مناظرة، مشتركة معها في علة المشابهة اشتراكا ظاهرا لا خفاء فيه، وهو ما من شأنه أن يزيد المخاطب بذلك الخطاب حضورا للنفس، وشعورا بفداحة ما هو عليه من مخالفة تلك القضية البدهية التي يراها ماثلة لا في قضية واحدة وحسب بل في أكثر من قضية بدهية يلزمه في كل واحدة منها ما يلزمه في الأخرى إن أصر على البقاء على باطله! ولهذا يكون في سماع المثل القرآني تعضيد وتثبيت وتقوية من اليقين في نفس المؤمن فوق ما يقع من مجرد التذكير، ويكون فيه – كذلك – مزيد تنفير وإشعال لأحقاد الكافر المستكبر واستخراج لآفات نفسه المريضة وقلبه المظلم، فوق ما يصاب به من مجرد التذكير، ولله الحكمة البالغة.

ومن ذلك قوله تعالى: ((ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)) [النحل : ٧٥] فوجه المحاجّة في هذا المثل هو تذكير المخاطب بالفارق الظاهر بين العبد المملوك الذي لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء، والسيد الحر ذي السعة والرزق الحسن الذي يقدر على النفقة، فلا بد بالبداهة أن يكون الفارق بين المخلوق (حرا كان أو مملوكا) وبين خالقه الذي يملك كل واحد من أفراد خلقه وما ينفق وما يعمل، أظهر وأعظم! ولا بد – إذن – أن يكون الذي يعبد ذلك المخلوق الناقص

العاجز الذي لا يملك من أمر نفسه فضلا عن أمر غيره ما يملكه خالقه ورازقه، لابد أن يكون هذا مقترفا لأمر قبيح بالغ القبح، هو يعلم قبحه وشناعته بالبداهة! هذه معان بدهية ظاهرة تغني الإشارة إليها عن شرحها وتوضيحها!

فالحجة هنا ليست تعريفا للمخاطب بقبح تلك الفعلة (عبادة المخلوق من دون الله) على سبيل التأسيس، باستعمال القياس على قضية أخرى يعلم قبحها، حتى تحصل لديه المعرفة بها من بعد خلو النفس منها، وإنما هو تذكير له بشناعتها المركوزة في فطرته، وتبكيت له إن لم يشهد بشناعتها ويعترف بها، من طريق ضرب المثل، فتستحث نفسه بذلك على الرجوع إلى فطرتها القاضية باستشناع القضيتين جميعا! فليس المقيس (الأصل) خافيا على المخاطب، حتى يقال إن الغرض من المثل أن يجليه بمقارنته بالمقيس عليه (الفرع)، وإنما هو من إلزام المخاطب بأنه لو صدق وعقل لاستشنع المقيس (الفرع الظاهرة شناعته) فوق ما يستشنع المقيس عليه (الأصل الظاهرة شناعته كذلك)، ولتركه فورا بمجرد سماع تلك التذكرة، لأن البداهة تقضي بأنه أشنع منه وأذم! ولهذا نص أئمة السنة على أن قياس الأولى يجري في حجج القرآن كثيرا، فهو قياس على هذا الوجه الذي بينا، وليس قياسا نظريا يراد منه تعريف السامع بما لم يكن يعلم من قبل، أو كانت تخلو منه نفسه من قبل! فكأنما يقال للمشرك هنا: "إن كنت تستشنع أن يسوى بينك وبين عبدك المملوك عندك الذي هو مخلوق مثلك، فما بالك أنت تسوي بين ربك الذي خلقك وخلق كل شيء، وبين بعض خلقه في التأليه والعبادة؟ ألا ترى ما في ذلك من الظلم العظيم؟"!

فإن قال قائل إن الله نفى عنهم العلم في قوله ((بل أكثرهم لا يعلمون))، فلزم أن يكون المقصود من ضرب المثل تعريف المشركين بما خلت منه نفوسهم من قبل من المعرفة بشناعة الشرك! قلنا إن العلم المنفي عن المشركين في قوله تعالى ((لا يعلمون)) إنما هو العلم المفضي للقبول والانقياد التام، وليس مجرد المعرفة المطابقة للواقع! أي أنه ذلك العلم الحق الذي يحصل للمخاطب بالقرآن إن خلت نفسه من الأهواء المانعة من قبول الحق، فيثمر فيها الخير ظاهرا وباطنا! وإلا فصاحب الهوى لا ينتفع بعقله ولا بالمعرفة المركوزة في فطرته، ولا بما يتلى عليه من آيات الله، فلا يقال إنه عالم على الحقيقة مهما علم!

ولهذا قال العلماء إنما العلم الخشية، ولا يقال "عالم" إلا لمن أثمر العلم فيه الخشية والمراقبة! ألا ترى أن الله تعالى يقول: ((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء)) الآية [فاطر : ٢٨]، فلو كان المراد هنا: كل من حصلت لديه المعرفة بصفات الله وقدرته وشرعه وعاقبة عصيانه، للزم أن يكون كل من يتصفون بمجرد معرفة تلك القضايا وأدلتها من الكتاب والسنة من أهل الخشية والتقوى بالضرورة، وللزم أن يكون إبليس من أعظم المكلفين خشية لله، لأنه يعلم من أمر ربه ما لا يعلمه أكثرهم، وهذا ظاهر البطلان! وما زلنا نرى من أصحاب الكعوب العالية في العلوم الشرعية من ابتلعتهم الأهواء ابتلاعا وتجارت بهم كما يتجارى الكلب بصاحبه، حتى صاروا من أول من تسعر بهم النيران يوم القيامة، نسأل الله العافية! وكذلك نرى من يصبح منهم رأسا للبدعة والضلالة، داعية على باب من أبواب جهنم يدعو الناس إليه بالكتاب والسنة وهو مع ذلك عليم بحجج أهل السنة وأدلتهم الظاهرة في إبطال بدعته وضلالته!

فهذا لا يقال له عالم على الحقيقة، مهما حفظ المتون وجمع النصوص وتفوق على أقرانه في فنون النظر، لأنه لو كان صادقا في قبول ما تعلم وفي الإيمان به، لصدقت أفعاله وأحواله معارفه وعلومه ولانتفع بها كما ينتفع العاقل بعقله! وإلا فكما لا عقل على الحقيقة لمن لم ينفعه عقله، فلا علم على الحقيقة لمن لم ينفعه علمه! ومن هذه البابة نفسها يقال للمشركين الذين لم يتركوا الشرك يوما من الدهر و لم ينفروا منه و لم يستشنعوه و لم يظهر عليهم إلا قبوله والرضا به والبقاء عليه، يقال لهؤلاء إنهم لا يعلمون ولا يعقلون، مع أنهم لا تخلو نفوسهم من المعرفة الفطرية البدهية بشناعة الشرك بالله جل وعلا وتسويته بخلقه، كما لا تخلو منه نفس إنسان أصلا! فإن هم قبلوا رسالة الرسول وخرجوا من شركهم ودخلوا في الإسلام، استحقوا إذن اسم العلم واسم العقل معا، لا قبل ذلك!

ومنه قول الله تعالى: ((وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) [النحل : ٧٦] فالمثل هنا يراد منه تذكير السامع بالفارق الجلي الظاهر بين المؤمن والكافر من حيث الخير الذي يكون في الأول والشر الذي يكون في الثاني، مع ما يكون لكل منهما من ربهما من الرزق الوافر والنعم المتصلة التي لا تنقطع، وذلك بتمثيل الأول بالرجل الذي اكتملت حواسه ومداركه،

يجيب إذا دعي، ويمتاز لديه الخير من الشر إذا سمعه، وتمثيل الثاني بالأبكم العاجز عن كل شيء، الذي لا يستجيب للتوجيه ولا يأتي بخير، فإذا حضرت الصورة إلى نفس السامع، حضر معها استشناع ما عليه الكافر، وهو أشنع – ضرورة – مما عليه الأصم الأبكم الذي لا يقدر على شيء ولا يدري إلى أين يمضي، إذ خسران الدنيا مهما عظم فلا يقاس إلى خسران الآخرة، كما يعلم العقلاء ذلك بداهة! وإذن يعظم أثر الخطاب في النفس ويتضاعف الشعور بفداحة ما عليه الكفار، وهو المطلوب.

ونظير ذلك قوله تعالى: ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) [الزمر : ٢٩] يذكر السامع بفداحة ما عليه المشرك من افتراق أمره وشتاته إذ يتوجه لمعبودين أو أكثر بالدعاء فيما لا يطلب إلا من الله، ثم لا يدري أيهما أحق بالإرضاء من الآخر، ولا يدري كيف يرضيهما جميعا، بتمثيله بالعبد المملوك لشركاء مختلفين، لكل منهما ميله ومراده، فلا يدري إن أرضى أحدهما كيف يرضي الآخر! فالمحاججة هنا حاصلة لا بالتذكير بحقيقة معينة في الخارج، وإنما بحقيقة في نفس السامع، فالمشرك يجد ذلك الافتراق والعنت والفصام في نفسه لا محالة مهما أنكره! فيأتي المثل لتذكيره بتلك الحال التي هو حريص على إخفائها من نفسه، وذلك بتمثيلها بين يديه بحال مشابهة، تكون في الشاهد على نحو لا يقل جلاء ولا ظهورا، فتجتمع عليه أسباب الشعور بالخجل والخوف من أثر ما هو عليه من شتات الأمر وافتراق الدين، لا سيما مع علمه أن افتراق الدين أعظم تبعة وأفدح مصابا مما يكون عليه ذلك العبد المملوك لشركاء متشاكسين.

ومن المحاججة بضرب المثل كذلك، قوله تعالى: ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ)) [إبراهيم : ٢٤-٢٦]، فالمثل هنا الغرض منه تذكير السامع بحقيقة بدهية مركوزة ابتداء في نفسه، ألا وهي أن الكلمة الطيبة (كلمة التوحيد) تبقى وتثمر الخير الوفير وتقوم في نفس صاحبها على أصل متين لا تزيله الشبهات والخرافات، خلافا للكلمة الخبيثة التي لا تمكث في النفس ولا تقوم على أساس ولا يزال صاحبها يبدل فيها ويتقلب عليها ما دام النفس يتقلب في صدره، ثم لا يجني منها إلا الشر

والهلاك في الآخرة، فتكون كالزبد يذهب جفاء كأنه لم يكن! هذا الفارق معلوم لديه ابتداء، مهما أخفاه في نفسه أو تغافل عن إثباته، ومع ذلك يأتي القرآن بنظير له في أمر محسوس مشاهد لا يماري فيه أحد من أهل الملل، ليحصل من اجتماع المثيل إلى مثيله والنظير إلى نظيره في نفس السامع ما قد لا يحصل من مجرد التذكير بالحقيقة البدهية المراد التذكير بها، فيزداد تحرجا من موقفه إن أصر على التكذيب، أو يزداد اطمئنانا لموقفه إن كان من المؤمنين الموقنين!

ومنه قوله تعالى: ((وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)) [البقرة : ١٧١]، فيمثل حال الكافر الذي لا ينتفع بالحق الذي سمعه، بحال الغنم تسمع صوت راعيها حال كلامه فلا تفهم منه شيئا ولا تنتفع بالخير الذي فيه، فيحصل من ذلك حضور دواعي النفور من تلك الحال البائسة، باجتماعها إلى ذلك النظير المنفر في نفس السامع.

ومنه قوله جل شأنه: ((مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)) [البقرة : ٢٦١] فيحضر في نفس المؤمن الطمع فيما عند الله من ثواب النفقة في سبيل الله في الآخرة، كما يجد أحدهم حرصا على جني ثمار ما بذر في الأرض من بذور القمح، فإذا بالحبة تصبح سبعا والسبع تصبح كل واحدة منها سبعا، وهكذا، أضعافا كثيرة. فليس المؤمن في حاجة إلى من يعلمه بأن للمؤمنين أجرا وفضلا عظيما عند الله تعالى، هذا معلوم سلفا! وإنما يتضاعف استبشار المؤمن بأجره ومثوبته عند ربه إذا ما حضرت في ذهنه تلك الصورة الممثل بها.

ومنه قوله تعالى: ((مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ)) [إبراهيم : ١٨] فالمشرك يعلم بداهة أنه إن لقي ربه على الشرك فليس له في الآخرة من نصيب، مهما عمل من عمل في الدنيا! فالمثل ليس المراد منه إعلامه بهذه الحقيقة البدهية، وإنما يراد منه التخويف من تلك الحال بإحضار صورة مشابهة في نفسه، فكأن ما كان معه من خير في الدنيا قد احترق حتى صار رمادا، ثم إذا بالريح تعصف به فلا يبقى بين يديه منه شيء ولا حتى الرماد!

ومنه قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُوراً)) [الإسراء : ٩٩]، وفيه تذكير بما سبق من خلق الله السماوات والأرض، ثم إثبات قدرة الرب على إعادة الخلق كما بدأه أول مرة، وبيان ما في اعتراض المشركين على إمكان إحياء العظام بعدما رمت وبعث الموتى وحشرهم جميعا بزعمهم أنه أمر ممتنع، من ظلم بيّن وجحود عظيم! فالمثل هنا مع كونه قياسا جليا للغاية، فليس غرضه أن ينشئ علما جديدا في نفس السامع، وإنما غرضه التشنيع على أصحاب ذلك الاعتراض السخيف واستنكاره عليهم!

والقصد أن المحاججة بضرب المثل كلها كما ترى مدارها على استظهار موانع قبول الحق في نفوس المخاطبين لإزالتها بإحضار شناعة الباطل إلى النفس، بما علم المخاطب بداهة أنها أشنع منه من باب أولى، أو لفضحهم بذلك الباطل إن كانوا من أهل الكبر والإصرار عليه. فليس الأمر تعريفا بأمر غير معلوم، أو إظهارا لمعنى خفي، كما هي أغراض النظار من استعمال الأقيسة وضرب الأمثال على اختلاف أنواعها، وإنما هو إشعار للنفس بحقيقة حالها، وبفداحة البقاء على الباطل بعد سماع الحجة! وهذا (أي كشف ما في النفس للمخاطب بالقرآن) يحصل من طرق أخرى كذلك إلى جانب ضرب المثل.

ثالثا: المحاججة بكشف ما في القلوب

ويقصد بها إظهار تلبس المعرض والمكذب والجاحد بأهواء عظيمة تمنعه من قبول الحق الواضح الذي ليس فيه شك ولا يدخله احتمال. وهي على ثلاثة أقسام:

- الفضح بالتعجيز، وهو ما يكون ببيان عجز الآلهة المزعومة من دون الله عن الإتيان بأفعال الربوبية.
- التوبيخ والتبكيت، وهو ما يحصل من طريق إشعار المشرك بشناعة ما هو عليه، وبعظم جرمه إن أبى الزوال عنه بعدما جاءه الرسول.

- تشخيص ما في القلوب وبيان الثمرة المتوقعة من سماع الحجة التي جاء بها القرآن في نفوس المخاطبين به على اختلاف أحوالهم وفئاتهم، وهو ما يجدونه في أنفسهم كما وصفه الله تحقيقا، في الدنيا أولا ثم في الآخرة.

ومن أمثلة المحاججة بالتعجيز، حجة إبراهيم على قومه، قال تعالى: ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ . وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ . وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ . وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)) [الأنعام : ٧٤-٨٣]

ففي مقدم الحجة، يقرر إبراهيم لأبيه وقومه أن عبادة الأصنام ضلال مبين، ثم لما تأمل عليه السلام في ملكوت السماوات والأرض، ألهمه ربه طريقا لإحراج قومه وإظهار بطلان ما هم عليه بأوضح وأبلغ ما أنت راء من أنواع الحجة! فخرج عليهم في جُنة الليل يشير إلى الكوكب (وقد كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر من دون الله، مع ما اتخذوه من أصنام)، فقال لهم على سبيل التترل: "هذا ربي"، ثم مكث حتى أفل ثم قال ما معناه "ألا ترونه قد أفل؟ فكيف يكون هذا ربي؟ لا أعبد إلها يأفل ويزول!" ثم لما رأى القمر أشار إليه فقال هذا ربي، فلما مضى في فلكه وغاب وأفل كسابقه، أشهدهم إبراهيم على أنه ليس إلا جرما آخر يكمل وينقص كغيره من أنواع المخلوقات، فلا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، فإن لم يهده ربه فسيكون مثلهم، يعبد ما لا يستحق أن يعبد! ثم لما طلع النهار خاطبهم بالخطاب نفسه عن الشمس وغروبها، مبينا أنها وإن كانت أعظم من سابقيها في شروقها

وعظم أثرها على الأرض، ولكنها مع ذلك تأفل وتغيب، والرب الباري لا يأفل ولا يغيب، كما تقضي به بداهة كل عاقل! فإذا كان هذا هو نوع ما تعبدونه يا معاشر المشركين، فإني أشهد الله وأشهدكم على أني بريء مما تعبدون من دونه! وإنما أتوجه بقلبي وعبادتي للذي خلق الشمس والقمر والكواكب جميعا، الذي لا يغفل ولا ينام ولا يأفل ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء!

وحينئذ جادله قومه! ولابد أنهم في ذلك الموضع قد ساقوا إليه فلسفات أحبارهم وسفسطات أئمتهم التي بها يزين القوم لأنفسهم تلك الملة الفاسدة، ومع هذا لم نر إبراهيم عليه السلام يقابلهم بنصب البرهان الفلسفي أو الكلامي على وحدانية الله جل وعلا، أو على حدوث الشمس والقمر والكواكب وافتقار العالم للصانع، أو نحو ذلك من زبالة الفلاسفة وأهل الكلام! وإنما قابلهم بالتذكير بما هو مركب في فطرهم من الخوف من باريهم ومالك أمرهم جل شأنه، الذي بيده مقاليد كل شيء، ولا يملك النفع والضر أحد سواه، لعلهم إن تذكروا موجبات الخوف من ربهم وباريهم، التي يعلمونها من قبل علم اليقين، أن يترجروا عن شركهم، وأن تزول أسباب صدودهم عن قبول الحق الجلي الواضح الذي جاء يدعوهم إليه!

فبين لهم أنه لا يخاف من تلك الكواكب والنجوم المركبة في أفلاكها تركيبا، وما كان له أن يخاف، فهو من تلك المعبدوات الباطلة بمأمن ما دام لا يشرك بربه شيئا، وإنما حقهم هم أن يخافوا من ربهم وباريهم الذي خلقهم وما يعملون، إذ نسبوا إلى بعض خلقه ما لا يصح من الصفات إلا له، وتوجهوا إلى بعض خلقه بما لا يتوجه به من الأعمال إلا له! فسألهم عليه السلام سؤال استنكار وتخويف وتوبيخ قائلا: أينا أحق بالأمن يا عقلاء؟ عبدة الجرم والحجر والتمثال وغيرهما مما صنع رب العالمين، أم الذين يعبدون الله وحده لا شريك له؟ إن أراد الرب بكم سوءا فلن تمسك تلك المعبودات عنكم ما أراد بكم من ذلك ولن ترفعه عنكم إذا نزل بكم، وإن أراد بكم نفعا فلن تمسك عنكم رحمته، وما كان لها أن تفعل! فكيف لا تخافون أنتم والحالة هذه، بل تخوفونني أنا بتلك الأشياء التي عبدمتوها من دونه؟؟ أفلا تعقلون؟؟ ((قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ)) الآية [الزمر : ٣٨]

فهذا تذكير بحقيقة فطرية يعلمها كل مشرك في نفسه علما تاما، وإنما تلهيه الأهواء عنها وتغرقه في الغفلة، وهو (أي ذلك العلم الفطري البدهي) السبب في كونهم جميعا لا يصيبهم الضر الشديد إلا توجهوا إليه سبحانه غالبا ونسوا ما كانوا يعبدون من قبل، لأنهم يعلمون في بواطن نفوسهم أن تلك المعبودات التي عبدوها من دونه سبحانه لا تملك كشف الضر عنهم ولا تحويلا! وبهذا المعنى نفسه يحاجج الرب جل شأنه مشركي قريش في مثل قوله: ((وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً)) [الإسراء : ٦٧] وقوله: ((وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)) [الزمر : ٨]! فهذه ونحوها آيات تعمل في القلوب السليمة (السالمة من الأهواء الحاملة على الشرك) عملا عظيما، إذ تصيب المخاطب بها بالخجل من نفسه، وبالندم الشديد على ما كان منه من تفريط في حق ربه الذي لما سأله في الشدة أجابه ونجاه منها حتى وهو يعبد غيره معه، ويسبه ويسيء إليه بذلك أعظم الإساءة، سبحانه وتعالى علوا كبيرا!

وعمل القلوب هذا لا يحصل إلا لمن يصح وصفهم ابتداء بأنهم قوم يعقلون. ولهذا يكثر في القرآن قول الملك جل شأنه ما معناه أن تلك الآيات إنما ينتفع بها الذين يعقلون، وأما المجرمون فتكون عليهم وبالا، فلا تزيدهم إلا ضلالا وعتوا واستكبارا! كقوله تعالى: ((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) [البقرة : ١٦٤] وقوله جل وعلا: ((وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) [الرعد : ٤] وقوله سبحانه: ((وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) [النحل : ١٢]

فليست هذه براهين نظرية ولا حججا فلسفية ولا أدلة تجريبية ولا شيئا من ذلك، حتى يصبح معيار كمال الدليل العقلي في الخطاب بمثلها هو أن تحصل بسببها المعرفة المطلوبة حصولا صحيحا،

وإنما هي علامات باهرات على معرفة فطرية جلية حاصلة في النفس ابتداء، فلا يراها على أنها كذلك إلا العقلاء حقا، لأن المعنى الذي هي علامة عليه إنما هو حقيقة بدهية وفطرة مركبة في نفوس البشر جميعا، فلا يعترف بها ولا يراها على ما هي عليه إلا العقلاء الأسوياء!

أي أن من شرط العقل وكمال العقل، أن تكون النفس سالمة من الأهواء التي تمنع هذه البينات من إنبات الإيمان فيها كما ينبت الماء البقل! فمن حاكم أمثال هذه الآيات والعلامات والحجج الباهرات إلى معايير الفلاسفة في قبول الحجج العقلية وردها، فقد حكم على نفسه بالسفاهة وأخرج نفسه من مسمى العقل رأسا، ولا كرامة! فهم قوم زعموا أن العقل لا يعمل عملا صحيحا إلا بالنظر والقياس، ولا يكون البرهان عقليا ولا ينسب صاحبه إلى العقل إلا بأن يكون جاريا على طريقة من طرائق البناء النظري الذي يلتمس في إكساب النفس بما تخلو منه من أنواع المعارف النظرية التي لا يملك الإنسان في مثلها إلا أن يجمع الشبيه إلى شبيهه والنظير إلى نظيره! وهذا اختزال شنيع للعقل وحقيقته، يكفي – وحده – لرفع اسم العقل عن عموم الفلاسفة والمتكلمين جملة واحدة!

وما حكمنا بذلك تعسفا ولا إفراطا، ولا جئنا به من أكياسنا! وإنما هو صريح في قوله تعالى: ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ)) [البقرة : ١٣] فالفلاسفة هم من أبوا أن يؤمنوا كما آمن الناس، بل رموهم بالسفاهة وخفة العقل إذ قبلوا ما جاء به المرسلون دون أن يكون لديهم دليل نظري فلسفي على حدوث العالم! والمتكلمون هم من أبوا إلا أن يثبتوا أنهم ما آمنوا كما آمن الناس، بل آمنوا كما اشترط عليهم الفلاسفة أن يؤمنوا، فاصطنعوا لأنفسهم من براهين الحدوث ما يجعلهم يدخلون في جملة العقلاء عند فلاسفة عصرهم! فلا هؤلاء عقلوا حقيقة العقل ودليل العقل ولا أولئكم، وكلهم يلزم من مفهوم المعرفة عندهم تسفيه الأنبياء وتلامذتهم كافة، وإزالة أساس العقل من تحت بنيان الإيمان الذي بنوه في قلوبهم جميعا، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والقصد أن محاججة إبراهيم لقومه لم تكن ببرهان فلسفي ولا بدليل نظري قياسي (خلافا لما يتنطع أهل الكلام بادعائه في مثل هذا الموضع)، وإنما كانت بإشهاد المشركين على آيات بطلان شركهم،

على نحو لا يماري فيه ممار إلا افتضح كذبه، كما في حجة إبراهيم عليه السلام على ذاك الطاغوت الذي جادله في ربه وزعم لنفسه الربوبية، تلك الحجة التي حكاها ربنا في قوله تعالى: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)) [البقرة : ٢٥٨]، فلم يأت إبراهيم بمقدمات نظرية سيلوغية ونتائج منطقية، وإنما قصد عليه السلام إلى فضح الطاغوت المتأله أمام حاشيته ببيان عجزه عن الإتيان بأعمال الربوبية التي يقتضي زعمه الربوبية أن يكون قادرا عليها! فهو عجز معلوم بالبداهة والضرورة عند كل عاقل بطبيعة الحال، فلا يحتاج إلى من يعرف الناس به من بعد جهل أو خفاء، بالبناء على مقدمات معلومة لديهم!

أي عاقل هذا الذي يجهل أنه لم يخلق نفسه ولم يخلق العالم من حوله، وأنه لا يملك الهواء الذي يتنفسه والدم الذي يجري في عروقه، ولا يملك أن يخلق النبات من البذرة في الأرض أو الجنين في بطن أمه أو أن يبعث الميت من قبره بعدما رمّ؟ مربوبية الإنسان وافتقاره لمن يخلقه ويرزقه ويقوم بأمره مسألة بدهية لا يحتاج الإنسان إلى من يعرفه بها من بعد جهل، وإنما يحتاج إلى من يذكره بها ويتحداه أن يأتي بالبينة على خلافها (وليس بفاعل!)، مع التخويف من عاقبة الإصرار على ذلك الباطل المبين! فإن قالوا له "وما يدرينا أنك أنت صاحب هذه الرسالة حقا، المخاطب بالوحي حقا، وما يأمننا ألا تكون قد نقلتها عن غيرك أو زعمتها لنفسك كذبا؟" جاءهم حينئذ من الخوارق بإذن ربه بما يزيد من تجلية شناعة موقف المكذبين المماحكين على غاية ما يتصور حصوله في النفوس والعقول من ذلك! [1]

[1] مع أنه من الواضح أنه لا يعقل أن يكون صاحب دعوى كهذه وحجة كهذه كاذبا فيما يدعو إليه أصلا، لأن خالق السماوات والأرض ما كان ليدع رجلا يدعو الناس بمثل هذا، يخرجهم من الشرك ويدخلهم في الإسلام ويدعوهم لاتباعه على التوحيد الخالص الصحيح، وهو مع ذلك كاذب في دعواه النبوة لنفسه والاتصال به سبحانه من طريق الوحي! فالله تعالى لا يقبل من الدين إلا التوحيد الخالص والتسليم المحض والانقياد التام، وهذا بدهي ضروري، وإذن فالبداهة تقضي بأن الناس لو خرجوا من الشرك وتابعوا رجلا هذه دعوته وسلموا له رقابهم ليأمرهم بأمر الله وينهاهم بنهيه، لوجب أن يقبل الرب منهم ذلك، ولا تكون تلك المنزلة لكذاب أصلا (أن يكون إماما لسبيل النجاة والهداية في علم الله تعالى) ولا تنبغي له! ولهذا قال تعالى في نفي مجرد احتمال أن يكذب عليه رسول من رسله أو يتقول عليه ما لم يقله سبحانه: ((وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)) [الحاقة ٤٤-٤٧]

هذه المحجة الحنيفية والطريقة الراشدة في مجادلة المشركين، التي بها فضح إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كذب قومه في ادعائهم استحقاق الكواكب والشمس والقمر للعبادة من دون الله، هي نفسها التي بين بها كذبهم كذلك في التوجه للأصنام بالعبادة من دون الله! قال جل شأنه حاكيا ذلك: ((وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا به عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ . قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ . وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)) [الأنبياء : ٥١-٦٧]

فالحجة هنا تبدأ ببيان أن متابعة الآباء على عبادة تلك الأصنام ليس فيها دليل على صحة تلك العبادة، وأنهم إذ يفعلون ذلك فليس لهم فيه مستند ولا حجة، بل إنهم في ذلك على ضلال كما كان آباؤهم من قبلهم ولا فرق! وما أكثر ما يتبع الناس آباءهم على الضلال المبين! فحينئذ اعترضوا عليه بأنه لم يأتهم بدليل على بطلان تلك العبادة، فكما أنه ليس مجرد اتباع الآباء عليها دليلا على صحتها، فهو كذلك ليس دليلا على بطلانها! فلم يأت عليه السلام بدليل نظري يحدث لهم به ما كانت نفوسهم خالية منه من قبل من المعرفة بمربوبية تلك المصنوعات التي صنعوها بأيديهم وافتقارها كلها إلى رب كامل غير مربوب، تقوم به كما يقومون هم به وجوبا، فيكون هو المستحق للعبادة وحده من دونها، فهذه مسألة بدهية جلية لا تحتاج إلى أكثر من التذكير بها!

فهذا معن بين واضح لمن تأمل، ومع ذلك يأتيهم ربنا تبارك وتعالى بمزيد من الآيات الدالة دلالة جلية صارخة على صدق نبيه في دعوى النبوة حتى لا يبقى لعاقل حجة ولا شبهة حجة يحتج بها يوم القيامة، فإنه لا أحد العذر أحب إليه من الله تعالى، والحمد لله رب العالمين!

وإنما بدأ بتذكيرهم بأن ربهم المستحق للعبادة وحده، إنما هو خالقهم وخالق ما يصنعون بأيديهم وخالق كل شيء سبحانه، ثم جاءهم ببينة تحرجهم وتفضحهم وتبين كذبهم وضلالهم الذي رماهم به من قبل على أحسن ما يكون البيان، لا من باب الإعلام بما كانوا يجهلون، ولكن من باب صدم نفوسهم بحقيقته التي كذبوا على أنفسهم بشأنها وكانوا منها يفرون! ((انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)) [الأنعام : ٢٤]، فلما انصرفوا عن أصنامهم، أتى عليها إبراهيم عليه السلام بالهدم والتدمير، فلم يترك منها إلا كبيرها! فلما رأوها على تلك الحال، شهدوا من فورهم بما علموا من غير أن يشعروا: بأنها ما كانت تملك دفع التدمير عن نفسها، فضلا عن أن تدمر غيرها أو أن يكون بعضها قد دمر بعضا، فتساءلوا عمن فعل بها تلك الفعلة، وما خطر ببال أحدهم ولو لوهلة احتمال أن يكون كبير الأصنام (الذي تركه إبراهيم على حاله) هو الذي هدم الأصنام الأخرى بنفسه، لأنهم يعلمون أنه تمثال أصم لا يفعل ولا ينطق ولا يملك من أمره شيئا!

فلما ذُكر إبراهيم عليه السلام وأنه كان ينكر على القوم عبادتهم تلك الأصنام ويشنع عليهم، أتوا به على ملأ من الناس واتهموه بتدميرها، فتحداهم علانية أن يسألوها عمن هدمها، أو أن يسألوا كبير الأصنام الذي يفترض (على مقتضى توجههم إليه بالعبادة) أن يكون شاهدا على تلك الفعلة على الأقل، إن لم يكن هو فاعلها! فبأي شيء أجابوه؟ نكسوا على رؤوسهم وقالوا: "لقد علمت ما هؤلاء ينطقون"! فبهذا تم لإبراهيم مقصوده إذ أشهدهم على أنفسهم بأنهم يعبدون ما لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا يملك شيئا أصلا! ثم ما زاد على أن بكتهم ووبخهم توبيخا شديدا، واتهمهم بذهاب العقل بعدما قامت حجته الباهرة عليهم على رؤوس الأشهاد، فانتقموا منه وقذفوه في النار، عليه وعلى آله وآل نبينا الصلاة والسلام.

فلو لم يكن إبراهيم عليه السلام موصولا بالوحي، لطمع في العلو لنفسه لا للحق الذي معه، وفي أن يكون هو سيد هؤلاء ومعلمهم ورئيسهم الديني، وإذن لدعى كبار علمائهم للمناظرة في لاهوت دينهم وفلسفته حتى يظهر عليهم في نفس بضاعتهم التي بها استحوذوا على قلوب السفهاء والجهلاء وتسلطوا عليهم، وإذن لامتدت المناظرة العلنية بينه وبينهم لأيام بل وربما لسنوات، إلى حين يشعر أن الناس قد ظهر لهم من قوته وتمكنه من بضاعة خصمه ما يكفي لأن يجعلوه رأسا لهم، يعظمونه

كتعظيمهم أئمة دينهم! وكيف لا يتخذ لنفسه بذلك مترلة بين الفلاسفة والنظار، وهو إذن يكون قد جاءهم بمسلك في المجادلة يسوغ لرؤوسهم مصادر التقلي نفسها التي عليها أسسوا شركهم، ويجعل لهم في فلسفاهم تلك وأنواع أدلتهم المزعومة وجها بل وجوها تستحق أن يناقشهم فيها مناقشة الند المكافئ، ويصبح المخالف فيها صاحب رأي ونظر وجيه يستحق أن يحترم وأن يقابل بمثله من نفس نوعه لا غيره؟!

لو لم يكن إبراهيم عليه السلام رسولا من رسل الله لسلك ذاك المسلك المشين، الذي قام عليه علم الكلام عند أصحابه! ولكنه عليه السلام لم يطلب مناظرة ولا خصومة، وإنما جاء على الباطل فهدم بنيانه من قواعده، وفضح به أصحابه على ملأ من الناس فأقام الحجة الجلية الدامغة وصدع بها غير مبال بنقمة القوم عليه! فهذا – أيها القارئ الكريم – هو الفارق بين منهاج النبوة في مجادلة رؤوس الباطل ومحاججتهم ومفاصلتهم، ومنهاج الفلاسفة والمتكلمين ومن لف لفهم في "محاورة" مخالفيهم ومخاصمتهم ومداهنتهم! فالفلاسفة من سفاهتهم لا يرون في هذا المسلك الذي سلكه إبراهيم عليه السلام حجة أو دليلا أصلا، وذلك لفساد مفهوم العقل والمعرفة عندهم من الأساس! فهو ذلك المفهوم الكلي الذي تواضعوا عليه فيما بينهم حتى يفتحوا كل شيء للجدال الأبدي تبعا لأهوائهم، وحتى يتترسوا بدعوى خفاء الدليل كلما كرهوا أمرا يدعوهم إليه مخالفوهم، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

تقول لأحدهم وهو واقف في قلب الصحراء في رابعة النهار "افتح عينيك حتى ترى نور الشمس يغمرك من فوق رأسك"، فيعترض ويماري ويقول: "قدم لي الدليل النظري على ما تقول حتى أقبله منك وأصدق أن ما تراه عيناي إذا فتحتهما هو نور الشمس كما تدعي"! فإن قلت له: "يا أخي اتق الله ولا تمار، أنت تعلم أنها مسألة بدهية"، قال لك: "كلا لا أعلم، وعليك أن تثبت لي بالدليل أنها بدهية!" فهل يجهل هذا الكذاب أن هذا الذي يبصره من حوله هو نور الشمس الذي يبصره الناس كافة في كل نهار؟؟ أبدا والله لا يجهل، وهو كاذب قطعا إن زعم الجهل! وإنما اتخذ لنفسه منهجا فاسدا في مفهوم الدليل ومفهوم المعرفة يسوغ له ولأقرانه التترس بتلك الدعوى ونحوها إن طاب له ذلك لغرض في نفسه المريضة! فهو سفيه قطعا، لا عقل له، مهما تفنن في زخرفة قوله، ومن وافقه

على زعمه الجهل بأمثال تلك البدهيات الواضحة فقد لحق به في الحكم بذهاب العقل والسفه المبين ولا كرامة، نسأل الله السلامة!

والقصد، أيها القارئ الكريم، أن خلافنا، معاشر أهل السنة، مع أهل الكلام والفلاسفة خلاف منهجي عظيم، يبدأ من مفهوم العقل نفسه والدليل والحجة العقلية والمصدر الذي منه تحصل المعارف الأساسية (التي تقوم دعوى المرسلين عليها) في نفوس البشر! ولهذا لا ترى متكلما من أي فرقة من فرق المتكلمين يتناول ما في القرآن من وعظ وتذكير وتخويف وتشنيع وفضح لما في قلوب المشركين، وإخبار بما كان من قصص الأمم السابقة وما يكون في المستقبل من جزاء المؤمنين ومصير المجرمين المكذبين، على أنه من "أدلة" القرآن التي يقدمها بين يدي دعواه للبرهنة على صدق نسبته إلى رب العالمين! وإنما تراه يستخرج مواضع المجادلة بين الأنبياء وأقوامهم، أو المواضع التي تكلم فيها ربنا تبارك وتعالى بما يشبه أن يكون "قياسا نظريا" (على طريقة القوم في البرهنة والاستدلال)، ثم يبسط الكلام في بيان وجه كون تلك المواضع من نوع البراهين "العقلية" التي يشترطها الفلاسفة في تحصيل المقصود من التتريل، وأنها جارية على طريقة أهل الجدل في المناقشة بين الأقران في نوع المسائل النظرية!

وما ذاك إلا لأنه تعلم فيما تعلم أن المعارف لا تحصل للبشر إلا من طريق "الدليل العقلي"، وأن الدليل العقلي لا يكون دليلا عقليا صحيحا إلا إن كان جاريا على صورة من صور القياس الأرسطي (أو ما هو معتمد أكاديميا عند كبار فلاسفة العصر من أساليب القياس في تحصيل المعرفة بالواقع وما فيه)، وأن عقول الناس لا يحصل لها المطلوب من المحاجحة إلا بمثل ذلك، حتى بلغ القوم أن قال قائلهم: "من لم يتمنطق فلا ثقة في علومه"، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فلابد – إذن – أن يكون رب العالمين قد "تمنطق" في القرآن حتى يثبت للناس صحة دعواه، وإن لم ينظم حججه على الترتيب الصوري المعتمد عند المناطقة المشائين، وإلا لم يكن في القرآن من شيء يصلح أن يقال له "الدليل العقلي"! فهو (أي المتكلم) لا يرى الدليل دليلا حتى يكون جاريا على ذلك الشرط المنهجي الكلي ولو إجمالا (مقدمات كلية ثم نتائج تفضي إليها تلك المقدمات بصورة من صور القياس الأرسطي السيلوغي)، بصرف النظر عن مادة الاستدلال وموضوعه، وهذا من أخبث أمراض العقل والنفس، لو كانوا يعقلون! بل والله إني لأزعم أنه ما أفسد عقول البشر شيء بعد الشرك بالله تعالى كما أفسده

تعميم الفلاسفة لذلك الشرط المنهجي على كل معلوم، كما بسطنا الكلام على ذلك في غير هذا الكتاب، وإلى الله المشتكى!

تأمل قول الله تعالى: ((وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)) [غافر : ٢٨] ففي الآية يورد الرب جل وعلا قصة رجل يكتم إيمانه خوفا من بطش الطاغوت الكافر، وكيف حاجج ذلك الرجل قومه على تخوف منهم، فعمد إلى أحكم طريق لإشعار قومه الجبارين بظلمهم العظيم وبما يعمي أبصارهم من الأهواء التي تزين الباطل والظلم لأهله، من غير أن يهاجمهم أو يهاجم آلهتهم أو يتهمهم اتهاما صريحا، فأخذ ينكر على من أرادوا أن يقتلوا من يقول إن ربه هو ربهم ورب كل شيء، ويشعرهم بشناعة مسعاهم في ذلك منبها إياهم إلى حقيقة أنه لو كان ذاك الداعي إلى الله كاذبا فإن هم تركوه فلن يضر كذبه أحدا سواه، وإن صدقوه وتابعوه فلن يخسروا شيئا، وإن كان هو صادقا وقتلوه فهم الخاسرون، وإن صدقوه وقبلوا منه، فلعلهم أن يصيبهم موعد الله وفضله الذي وعدهم به!

فوجه الدلالة العقلية هنا ليس في بيان أن ما جاء به موسى هو به صادق وليس كاذبا، فقد اكتفى بتذكيرهم بأنه الحق من ربهم كما ترى، وإنما وجه الدلالة فيما يحصل للمخاطب العاقل الصادق من آل فرعون بكلام ذاك الرجل المؤمن إذا تدبره من الخجل على أثر انكشاف ما في نفسه من الهوى، من بعد ما تبين له التوحيد الذي جاء به موسى عليه الصلاة والسلام. فتوصل الرجل المؤمن إلى تلك الدلالة ببيان شناعة عزمهم على قتل نبيئهم هذا مع أنهم يعلمون أنه ما جاءهم إلا بالحق، ويعلمون كذلك أن الله ما كان ليهدي مسرفا كذابا، فما كان هو ليكذب في دعواه النبوة وقد جاءهم بالتوحيد الذي ما كان رب العالمين ليقبل من البشر دينا سواه، ومع ذلك فحتى لو سلمنا بكونه كاذبا فقد علموا أنما كذبه عليه وليس هو بضارهم أن يتركوه وشأنه، ففيم قتله إذن إن لم يكن حاملهم عليه هو العصبية العمياء لدين الآباء، وغيرها من أنواع الهوى الصارفة عن قبول الحق الذي معه؟

ثم يواصل ربنا تبارك وتعالى حكاية كلام هذا المؤمن الحكيم من آل فرعون فيقول: ((يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ . وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ)) [غافر : ٢٩-٣٤]، فتأمل كيف توجه خطاب المؤمن لا إلى شرح أو تفصيل البينة التي جاء بها موسى إلى هؤلاء، لأنها كما سماها الله تعالى "بينة"، والبين لا يفتقر إلى تبيين، والواضح لا يفتقر إلى توضيح، ولكن توجه الخطاب إلى تحذيرهم مما في قلوبهم من موانع لقبول تلك البينة، وتخويفهم من عاقبة البقاء على تلك الأهواء المردية!

وتأمل كيف أنه استنكر عليهم تشككهم فيما جاءهم به يوسف من قبل بالبينات الدالة على صحة نبوته وعلى وجوب قبول دعوته، فلم يفرق في أولئك المتشككين بين مكابر معاند وبين "باحث عن الحقيقة" (كما أصبح يقال لمتشككة الدهرية وجحدتهم في زماننا هذا من أثر طرائق الجهمية ومرجئة المتكلمين في مخاطبتهم، والله المستعان!)، بل سماهم جميعا بالمسرفين المرتابين دون تفريق، وبين أن شكهم وارتيابهم إنما هو من إضلال الله لهم بما كسبت قلوبهم وما أشربوه من أهوائها، فلا مدخل في شيء منه للاشتباه أو لخفاء الحق البتة، لأن البينات التي يأتي بها كل نبي من أنبياء الله لا يرد عليها الخفاء على عقل سوي، ولا يماري في مطابقتها للفطرة من بعد ما تعرض لها إلا كل مسرف مرتاب قد فسدت عليه نفسه وأبت عليه قبول الحق بعدما تبين!

فإذا كان ذلك كذلك، فلا يخاطب هؤلاء إن خوطبوا إلا بالوعظ والتخويف، ولا يجاب المتنطع منهم إلى شرطه نصب الدليل النظري من نوع كذا أو نوع كذا حتى يظهر له ما زعم خفاءه من صحة نبوة يوسف ونبوة موسى عليهما الصلاة والسلام! هؤلاء ما يريدون إلا المناظرة والمماراة والاستطالة فيها أبدا، حتى يتترسوا بها بين أيدي المؤمنين ما داموا مقيمين بين أظهرهم، ويتذرعوا لأنفسهم بدعوى خفاء الحجة كلما قام من يدعو ولاة الأمر لإقامة حد الله عليهم وكف ضررهم

وإفسادهم في دين المسلمين! فمن لم يفهم هذا من أحوال هؤلاء، ولم يتعلم درس القرآن في بيان حقيقة موانع نفوسهم وحواجز عقولهم من قبول الحجة الرسالية الجلية، فلم يخاطبهم إذا خاطبهم إلا بما شرطوه هم من تبيين البين وتوضيح الواضح ومن تكلف أنواع الجدل النظري القياسي المتنطع والمماراة الباطلة والسفسطة على بينة هي ظاهرة من الابتداء وحجة هي قائمة عليهم تحقيقا، فهذا لا يكون إلا صاحب هوى وحظ نفس ومصلحة دنيوية يريد أن يصيبها بمباراة هؤلاء ومنافستهم في بضاعتهم والتفنن في طريقتهم، وإلى الله المشتكى! ووالله ما أصيبت الدعوة إلى الله بضرر أعظم مما تسبب فيه هؤلاء المفتونون من الدعاة إلى الله عند مخاطبتهم أهل الكبر والجحود والتنطع والإعراض من أمة الدعوة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فبينما لا يفرق الفلاسفة في خطاب المحاجّة (والمتكلمون على أثرهم على اختلاف فرقهم ونحلهم) بين قلب مريض وقلب سوي، ترى القرآن يفرق تفريقا نوعيا صارما، فلا يخاطب المستكبرين والمعرضين والممارين بمثل ما يخاطب به من يرجى قبولهم للحق الواضح إذا ما تبين لهم! وبينما لا يجرؤ الفيلسوف أو المتفلسف أو المتكلم على سلوك مسلك الوعظ والتخويف والترهيب والتبكيت والزجر عند مخاطبة مخالفه، حتى لا يطرد من محافل القوم ولا يتهم "بخفة العقل" و"ضعف الحجة" و"قصور النظر" و"ضيق العطن" .. إلخ، ترى القرآن – الذي هو كلام الرحمن، العليم بقلوب عباده – مشحونا بالوعظ البليغ الذي تنخلع منه قلوب الأسوياء العقلاء انخلاعا، فلا يبقى فيها من الميل إلى الكفر أثر أو بقية! فإنما العبرة في النهاية بميل القلب، لا بكفاية البرهان أو الدليل على صحة الدعوى التي جاء بها الرسل! فإن الحق الجلي الواضح لا يفتقر إلى ما يوضحه ولا إلى ما يجليه، وإنما يفتقر المائلون عنه الكارهون له إلى من يخوفهم من عاقبة ذلك الميل والكره والهوى الذي يجدونه في نفوسهم، ويذكرهم بشناعته، عسى أن يتذكر منهم من علم الله في قلبه خيرا!

أي أن الله تبارك وتعالى لم يُخفِ أسباب العلم بوجوده ووحدانيته واستحقاقه للتأليه والإفراد بالعبادة سبحانه وتعالى بحيث تحتاج إلى استدلال وتوضيح، فلم يجعلها مشتبهة بضدها أو خفية المأخذ يرد عليها المعارض (عقلا) كما يزعمه الملاحدة المكابرون ويكثرون من الدندنة عليه في كل مناسبة، وإنما اقتضت حكمته سبحانه أن يبتلي البشر بأنواع من أمراض القلوب الصارفة التي تزين لنفوس

المرضى المستكبرين اختراع الأكاذيب من زخارف القول، مما ينقلب به الحق باطلا والباطل حقا، ويدفن تحته صوت الفطرة في النفوس، حتى إن الرجل منهم ليوشك أن يشكك في وجوده هو نفسه وفي حقيقة عقله وحقيقة هذا العالم الذي يبصره من حوله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ)) [الأنعام : ١١٣] [الأنعام : ١١٢]، فليس الابتلاء في موضوع القرآن ومادته التي نزل فيها ابتلاءً بخفاء الدليل، وإنما الابتلاء بما في القلوب من أمراض سماها الله أقفالا وأغشية وحجبا ((وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً)) [الإسراء : ٤٥] ، تعمي المجرمين عن رؤيته دليلا، وتبَغّضهم فيما يقتضيه إقرارهم بصحة ذلك الدليل والشهادة بقيامه بالمطلوب، من خضوع وتسليم وانقياد واجب لبشر مثلهم قد اصطفاه الله بالنبوة والرسالة! هم يكرهون مبدأ الخضوع والانقياد لرجل عربي أمي، ويكرهون إلزام أنفسهم بما جاء به من أنواع العبادات والشرائع والأحكام، يكرهون ذلك أشد الكراهية، ولولا هذا لما تخلفوا عن قبول الحق الواضح الذي يشهدون به في بواطن نفوسهم، ويعلمون أنه الحق من ربهم!

قال مجرم من ملاحدة الإنترنت معترضا على طريقة خطاب المسلمين إليه: "والتدبر كما يعرفونه هو التدبر في الكون وفي القرآن، أو كما يفضل بعضهم التنطع بالقول: التفكر في كتاب الله المنظور وكتاب الله المسطور.. وفي ثقافة سوق عكاظ التي تبيع الكلام وتشتريه لا تتوقع من التدبر أن يذهب الى أبعد من هذه البهرجة اللفظية.. فالتدبر عندنا ما هو الا رقية تعمل بطرق غامضة غير مفهومة، ولا تستطيع ان تعرف متى ستفعل فعلها ومتى ستتوقف ولا ماذا ستنتج. ولا أكاد أتذكر عدد المرات التي انتفض فيها احد المشايخ أو الدعاة طالباً مني التدبر وناعتاً إياي بعدم الفهم، ومشهراً في وجهي آية ((أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها))، وأنا لا أتصور أن عاقلاً يغضب إذا طلب منه أن يتدبر، ولكن والمشكلة هنا أن التدبر لن يقودك بالضرورة الى النتائج التي قررها المشايخ سلفاً، بل سيقودك في غالب الأحيان الى اتجاه آخر لا يرضى عنه المشايخ وعندها سيتهمونك مجدداً بعدم التدبر

أو بعمى البصيرة .. فالتدبر عند المشايخ لا يكون مثمراً الا إذا وصل بك الى ما هو معروف سلفاً وكفى الله المؤمنين القتال" هــ.

قلت: فصاحب هذا الكلام يكذب على نفسه وهو يعلم! وقد استحكمت على قلبه تلك الأقفال التي وصفها الرب جل وعلا فيمن لا يتدبرون القرآن، حتى لم يعقل ما التدبر المأمور به، ولم يخرج إلا بتتبع ما تشابه من نصوص الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء إبطال الحق الجلي الواضح الذي لا يماري فيه إلا سفيه!

فمثل هذا لا يناقَش ولا يحاور ولا يقال فيه إنه طالب للحق باحث عنه! هذا آفته ليست في حصول أسباب المعرفة بأن القرآن هو الحق من رب العالمين الذي لا يصح غيره ولا يضاهيه نظير ولا كفء في موضوعه، فهي حاصلة تحقيقا في نفس كل عاقل، وإنما آفته في استغلاق القلب والعقل عن الإقرار بتلك المعرفة الفطرية المركوزة في نفسه، وكراهة قبولها والعمل بمقتضياتها في حقه! فبدلا من أن تتوجه نفسه إلى الحق الجلي الواضح فيما خاطبه به ربه من كتابه، حتى يكون هو المحكم عنده الذي يحمل عليه كل متشابه، كما هي طريقة كل مؤمن عاقل، لن تراه إلا يتغافل – بعزم جازم في نفسه وبمحرك خفي في باطنه – كل محكم ويتعامى عنه وكأنه لا يراه، ثم تزين له نفسه اختراع الاعتراضات أشكالا وألوانا، فيقول: "قد تدبرت كما طلبتم مني، وتأملت كما دعوتموني، فلم أصل إلى شيء!"

فمثل هذا عندنا كمثل من أصر على ستر عينيه، ثم أخذ يطالبنا بأن نثبت له بالدليل الصحيح الدامغ أن ضوء الشمس يملأ جو السماء! افتح عينيك يا هذا وستبصر الضوء قطعا كما أبصره غيرك! ولكن هيهات! ولهذا كثيرا ما تجد أحدهم يقول: لقد قرأت من كتب علماء المسلمين كذا وكذا، ونظرت في مصنفاتهم في مشكل القرآن ومتشابهه، ونظرت في الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والمجمل والمفصل، وما زلت لا أقتنع بشيء ولا يظهر لي أنه كلام رب العالمين! ونحن نقول: والله لو أقرأتم مثل هذا المكابر الكذاب ملء الأرض كتبا ومجلدات وتصانيف في شرح القرآن وبيان متشابهه، ما كان ليؤمن إلا أن يشاء الله، وما كان لتحصل في نفسه ثمرة التدبر والسماع التي تحصل في نفوس

من سلمهم الله من تلك العلل القلبية ومن ذاك الكبر الفاحش! ((وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ)) [الأنفال : ٢٣]

بل ما أكثر ما تجد مثل هذا يعترض فيقول: "لو كان القرآن من عند الله حقا، فلماذا جعل فيه المتشابه؟ لماذا لم يكتف بالمحكم ليكون هو كل الكتاب، وحتى لا ينفتح الباب لمعترض أن يعترض أو لطالب هداية أن يضل؟"! ونقول لهذا: اخسأ يا مكابر فلن تعدو قدرك، من تظن نفسك؟ أتراك قد صرت شريكا لرب العالمين في حكمته وفيما قضته مشيئته من أنواع الابتلاء للناس في الحياة الدنيا، حتى تقول: لا يجوز للرب أن يجعل في كلامه المتشابه أو المنسوخ أو المكرر أو .. إلخ؟ لا تعارض بين أن يكون القرآن من عند الله، وبين أن يكون فيه المتشابه الذي يحتاج إلى تفصيل وتبيين (مما جاء به الوحي نفسه) حتى يُفهم على وجهه الصحيح! فالله تعالى ما ترك كتابه إلا جعل فيه – هو نفسه – بيان الحكمة من وجود المتشابه في الكتاب، إذ قال جل في علاه: ((هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ)) [آل عمران : ٧]، فهو سبحانه قد قضى بمشيئته أن يجعل المتشابه فرقانا بين أولي الألباب من أهل العلم الراسخين فيه، وبين الذين في قلوبهم مرض وزيغ، حتى يبتلي هؤلاء بأولئك، وحتى يرفع الذين آمنوا والذين آوتوا العلم درجات بفضله ومنته!

اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل في القرآن كلاما متشابها، يحتمل من حيث اللغة أن يفهم على غير المعنى المراد منه، حتى يبتلي المؤمنين بأن يطلبوا فهمه الصحيح من القرآن نفسه ومن السنة التي أنزلها تبيانا للقرآن وتأويلا له، كما أخبر سبحانه بهذا المعنى في قوله: ((وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) الآية [النحل : ٤٤]! هو سبحانه أراد أن يكون سبيل المؤمنين مفصلا بالكتاب وبمثله معه مما أنزل على رسوله، لا بالكتاب وحده، فما شأنكم أنتم ومن يظن أحدكم نفسه حتى يعترض؟ من كان صادقا في طلب الهداية، فليسلك طريقها كما بينه رسول رب العالمين، وإلا فليس بصادق ولا أهلا لأن يوفق للرشاد! فليس سبب النجاة في الآخرة في دين رب العالمين مقصورا على تلقي القرآن وحده منفردا، وإنما اقتضت حكمته أن يتبلي الناس باقتفاء أثر

الرسول والاقتداء به والتماس الفهم الصحيح منه والافتقار لذلك، فلا يصح للرجل دينه ولا يرتضيه الله منه حتى يأخذ بأثر الرسول وسنته ويمد إليها بكل سبب! فمن منكم يزعم لنفسه الحق في الاعتراض على مشيئة رب العالمين في ذلك؟! أيكم يرى لنفسه حقا في ذلك؟؟ نعوذ بالله من كبر يميت القلوب!

أما الزعم بأن المتشابه قد يضل من يطلب الهداية حقا وصدقا، فهذا – والله – لا يكون! فإن الذي يصدق في طلب الهداية، الذي أثمرت حجة القرآن في نفسه ما على مثله آمن غيره، لابد وأن تكون نفسه قد سلمت من موانع الانقياد التام والاتباع المحض لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذن يتجلى له الفهم الصحيح لكل نص متشابه، ويظهر له المسلك الصحيح في حمله على المحكمات من كتاب الله، ويظهر له التأويل الذي لا يماري العاقل الصادق بعدما يتبين له، في أنه هو الحق من رب العالمين! فإن من علامات الصدق في الإيمان، الحرص على تعلم السنة وطلبها من مظانها، حتى يكون كما قال الرب جل وعلا: ((وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً)) [الأحزاب : ٣٦]، وكما قال جل شأنه: ((قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [آل عمران : ٣١]! أما أن يزعم الرجل أنه صادق في طلب الحق، ثم يقول إن متشابهات القرآن قد منعته من قبوله والتسليم بأنه الحق، فهذا كذاب أشر، يكذب على نفسه أولا قبل أن يكذب على الناس!

ولهذا نقول إنه لا يكون الرجل داعية إلى الله على بصيرة، حتى يكون ملما بمداخل القلوب وحيلها وأهوائها، فلا يستدرجه سفسطائي إلى توضيح ما هو واضح، أو إلى جدال لا طائل تحته أو مراء يتنزه عنه كل عاقل، يرجو أن يسوغ به باطله البين الجلي، وحتى لا يتطرق إليه الطمع في قبول وانقياد أناس قد ظهرت عليهم علامات الهوى والإباء والإعراض كالشمس في كبد السماء، ولا يشتبه عليه المعرض المكابر المجادل مريض القلب، بالمقبل الصادق الوجل الذي تفيض عيناه دمعا مما عرف من الحق بمجرد أن يتلى عليه! فإن الداعية البصير هو من تعلم فيما تعلم من كتاب ربه أنه لا يدعو إذا دعا إلى رب خفي أو مجهول أو مشتبه، وتعلم أن أصل دعوة القرآن التي أرسل بها الرحمن رسله، ليس مسألة نظرية يرد عليها الخفاء أو احتمال المعارض، وإنما هي قضية فطرية بدهية لا يماري فيها إلا

مريض! فليس خطابك لمن تريد أن تقنعه بصحة دعوى نظرية دقيقة تحتاج إلى تركيب الأدلة وترتيب البراهين البعيدة عن أذهان الكافة من الناس، كخطابك لمن تدعوه إلى أن يفتح عينيه إن أراد أن يبصر ضوء النهار من حوله! فأما الأول فيحتاج إلى مناقشة ومباحثة وإلى تأسيس واستدلال طويل، ولربما أفضت المناقشة والمحاورة معه إلى نقلك أنت عن موقفك في المسألة إلى خلافه، وهذا متصور في أي مسألة نظرية لأنها ليست بالأمر الفطري الجلي الذي يعرفه البشر بداهة، وإنما يرد عليها المعارض ويتصور فيها الخفاء كشأن كل مسألة نظرية! وأما الثاني فلا يخاطب بمثل هذا، ولا يقبل منه زعمه خفاء دليل الدعوى، وإنما يخاطب خطاب المريض الذي تكون غايتنا إن رجونا له الشفاء أن نأخذ بأسباب معالجة قلبه وإصلاح نفسه، فنأخذ بأسباب إزالة الغفلة عن قلبه إن كانت مما يرجى زواله! والداعية البصير هو من تعلم من القرآن – كذلك – أي ثمرة ترجى أو تتوقع من مخاطبة فئات المشركين بالحق الذي جاء به القرآن، على اختلافهم وتفاوتهم، وأبصر ما في ذلك من تمام الحجة على أنواع الخلق كافة، ولله الحمد والمنة!

وما كان من عجب أن ترتب على تساهل الجهمية في مخاطبة الدهرية الجاحدين المكذبين، وتفريطهم في خطاب الزجر والتوبيخ والتقريع، أن ظهر الإرجاء الغالي عند المتكلمين! فقد أصبح غاية مرام الواحد منهم بعد عقد المناظرات الطويلة والمساجلات النظرية المعقدة التي قد تستمر لسنوات وسنوات، أن "يقنع" الخصم الدهري المعاند بأن له ربا بالغيب قد صنعه وصنع كل شيء! فإذا ما صرح الخصم الدهري بأنه قد سلم أخيرا بوجود الباري، ظهر إذن الداعي لتمييزه عن الملحد المكذب باسم ما أو لقب ما، فقالوا إنه "مؤمن بوجود الصانع" أو "مؤمن بالصانع"! فمن هنا ظهر التعريف الجهمي للإيمان على أنه التصديق بوجود الصانع أو الإقرار بوجود الصانع، وهو تعريف فلسفي فاسد كما ترى لا علاقة له بمفهوم الإيمان الذي جاء به الإسلام، ولا يمتاز به الوثني عن المجوسي الثنوي عن اليهودي عن النصراني، بل عن إبليس نفسه! كل هؤلاء على هذا التعريف يقال لهم "مؤمنون"، وهذا هو الكفر بعينه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فهؤلاء لما كان غاية مسعاهم ومنتهى جهدهم أن يوصلوا المجرمين الجاحدين المسفسطين من الدهرية وأشباههم إلى الإقرار بمخلوقيتهم ومربوبيتهم، أي أن ينتهوا إلى تأسيس ما لا تخلو منه نفس

كل صبي صغير لم تدفن فطرته بإرث الآباء، لم يجدوا بدا من أن يترلوا اسم الإيمان على هذا الذي انتهوا إليه بعد جهد جهيد، يوهمون الناس بأنه ينجي من يتحول إليه، مع أنه ليس بإيمان أصلا ولا قريب منه، والميت عليه محشور مع فرعون وهامان وإبليس، ولا حول ولا قوة إلا بالله! والسبب في ذلك، أيها القارئ الكريم، أنهم أجابوا المسفسط المماري الكذاب إلى شرطه الفاسد في قبول رسالة الرسول (ألا وهو تقديم البرهان العقلي على وجود الباري، على حسب مفهومه الفاسد للبرهان والعقل معا)، وقبلوا منه زعمه خفاء الحق عليه وزعمه الجهل بوجود من صنعه وركبه على نحو ما أراد واختار سبحانه، فلم يقرعوه على رأسه بمثل ما جاء به القرآن في مخاطبة أمثاله، وإنما جادلوه مجادلة الند المكافئ صاحب الرأي المعتبر والنظر الوجيه، على شرطه هو وعلى الطريقة التي تحلو له، والله المستعان!

ومن أمثلة المحاجة ببيان الثمرة القلبية الحاصلة من السماع عند المخاطبين قول الله تعالى: ((وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ)) [المدّثر : ٣١] فبين الملك جل وعلا في هذه الآية ثمرة سماع المخاطبين بالقرآن بعدة خزنة جهنم من الملائكة، وأنها تكون فتنة للكافرين، فيستيقن الذين أوتوا الكتاب من موافقة القرآن لما في كتبهم في نفس الأمر، ويزداد الذين آمنوا إيمانا لما يستشعرونه من عظمة الله تعالى وسعة ملكه يوم القيامة، وتزول الريبة عن هذين الفريقين، في مقابل أصحاب القلوب المريضة والكافرين الذين علم الله تعالى أنهم لن يسمعوا تلك العدة إلا سخروا وتهكموا وتنطعوا بالسؤال والاستغراب من جعلها على هذا النحو لا على غيره! وهذا ما يكون من شرار الكفار، ويجدونه في أنفسهم تحقيقا كما وصفه الله تعالى، فإذا ما سمعوا عاقبته ووجدوها تترل بهم يوم القيامة لم يكن لهم إلى العذر من سبيل! يقال لأحدهم ((عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)) [المدّثر : ٣٠] فيقول في نطاعة واستخفاف: ولماذا تسعة عشر؟ لماذا لم يجعلها عشرين؟ أو يقال له قد شرع الله تعالى صلاة الظهر أربع ركعات، فيقول: ولماذا لم يجعلها ثلاث ركعات أو ركعتين كالفجر؟ أما كانت تكفي ركعة

واحدة كالوتر؟! أو يقال له: الطواف سبعة أشواط، فيقول: ولماذا لم يجعلها ثلاثة؟ وهكذا! وهذا مشاهد مجرب!

ومن أمثلة المحاججة ببيان خفايا القلوب عند المخاطبين بالتنزيل قوله جل شأنه: ((إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ)) [البقرة : ٢٦]، فالله تعالى يقرر أولا للمخاطبين بالقرآن أنه هو خالق كل شيء، الذي لا يستحيي أن يضرب الأمثال للناس بأهون خلقه، ثم يكشف لهم أنه لا يضرب مثلا كهذا إذا ضربه سبحانه إلا وهو يعلم أي القلوب ستخبت لربها وتشهد بأن هذا هو الحق من عنده، وأي القلوب ستماري وتجادل وتتفلسف وتتنطع على عادة المكابرين الجاحدين، حتى يكون المثل الواحد في القرآن يهدي الله به من يشاء ويضل به – هو نفسه – من يشاء، من كمال حكمته وعلمه سبحانه، ولا يضل به إلا من كان من مرض قلبه واستكبار نفسه أهلا لأن يضل ولأن يهلك، نسأل الله السلامة.

ووجه الحجة العقلية في ذلك أن المؤمن يجد في نفسه – تحقيقا – ما وصفه الله من حاله إذا ما سمع الأمثال في القرآن، وأن الكافر المستكبر يجد في نفسه – كذلك – ما وصفه الله من حاله في المقابل، كما وصفه جل شأنه وتقدس اسمه! فإذا كان يوم القيامة، وعرضت أعمال القلوب على أصحابها، لم يكن لأحدهم من عذر بين يدي الله يومئذ! ((يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)) [غافر : ٥٢] فالله تعالى قد نزل إليهم الذكر تنزيلا، وضرب لهم فيه من كل مثل، وحذرهم فيه أبلغ التحذير من أن يستكبروا عليه أو يماروا فيه على وضوحه وجلائه الباهر، وبين لهم ما يجدونه في قلوبهم من سماع الذكر وواجههم به، ثم مد لهم من العمر ما يتذكر فيه من تذكر، ويتوب فيه من يتوب ((أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ)) الآية [فاطر : ٣٧]، فتكون الحجة بذلك قد أحاطت بكل واحد من أولئك المكذبين الممارين أتم الإحاطة، على اختلاف أحوالهم وأهوائهم، كما لا يتصور قيامه إلا في كتاب الله رب العالمين وحده، الذي يعلم السر وأخفى من السر، وكما في قوله تبارك وتعالى: ((وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ

إلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً)) [الإسراء : ٦٠]!

ومن الأمثلة قوله تعالى: ((وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ . مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)) [الأعراف : ١٧٥- ١٧٨] فتأمل كيف يأمر الله تعالى نبيه أن يتلو عليهم القصص الإلهي لما يثمر عنه ذلك عند العقلاء من تفكر صحيح، يحصل به مقصود القرآن! فأي نوع من أنواع التفكر هو المقصود هنا على وجه التحديد؟ هل المقصود التفكر بالنظر في دليل صحة القرآن أو دليل وجود الباري أو نبوة الرسول عليه السلام أو غير ذلك مما جعله أذناب الفلاسفة شرطا لقيام حجة القرآن على الناس؟ أبدا! وإنما المقصود أن يتفكروا في أحوالهم هم وفي قلوبهم وما فيها من الأهواء! فإنهم إن تدبروا في أحوال هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى وقص أمرهم وضرب مثلهم، ممن أوتوا آيات الله ثم انسلخوا منها وكانوا من الغاوين، فسيحصل لهم بذلك من الخير والهداية بإذن الله تعالى الشيء العظيم! هذا ما به يحصل علاج عقولهم وشفاء ما في نفوسهم إن أراد الله بهم خيرا!

وإلا فيقول جل شأنه فيما يلي ذلك من آيات الذكر الحكيم: ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)) [الأعراف : ١٧٩-١٨٠] فالذين لا ينتفعون بما في القرآن من الأمثلة والقصص والعبر والمواعظ البليغة، ويشترطون على الرسل من أنواع الأدلة ما لا يفتقر إليه عاقل حتى يعلم أن الحق فيما جاؤوا به لا في غيره، هؤلاء قد أعلمنا الله بأن قلوبهم لا يفقهون بها، وأعينهم لا يبصرون بها، وآذانهم لا يسمعون بها، وأنهم من غفلتهم كانوا أضل من الأنعام! فلأن الأنعام ليست مخاطبة بالتكليف، فمهما أسمعتها ما جاءت به الرسل فما كانت لتنتفع به البتة!

فكيف بمكلف يخاطب بلسانه بالحق الذي جاءت به الرسل، ثم هو مع ذلك يشبه حاله أحوال الأنعام إذا ما أسمعتها كلام الله ورسله؟ هذا أضل وأحط من الأنعام قطعا، ولا حول ولا قوة إلا بالله! هذا مهما سقت إليه من الآيات البهارات فما كان ليؤمن حتى يرى العذاب الأليم! قال تعالى: ((وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ)) [الأنعام : ٤]، وقال: ((وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)) [الأنعام : ٣٥] فلما كان هذا هو حال هؤلاء، أنهم من بعث النار الذين خلقوا من أجلها، وسبق عليهم القول بهذا من قبل أن يولدوا، جاء القرآن بإعلامنا بما في نفوسهم حتى لا يجزع الرسول والذين آمنوا من إعراضهم التام واستكبارهم البالغ وعمى قلوبهم وبطشهم بأهل الحق وبغيهم عليهم، وحتى يكون في ذلك من تمام الحجة على هؤلاء المجرمين ما يشهدون به على أنفسهم يوم القيامة!

قال تعالى: ((يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ)) [الأنعام : ١٣٠] فهو يحاججهم بما يكون منهم لا في الدنيا بل في الآخرة، وهذا من تمام الحجة التي لا تكون إلا من رب العالمين وحده! فهو يخبرهم بأنهم سيقولون يوم القيامة كذا وكذا، لأنه يعلم أنهم يعلمون أنهم كاذبون على أنفسهم وعلى غيرهم من الناس بادعائهم بطلان ما جاء به الرسول أو خفاءه عليهم، فيكشف لهم ما في نفوسهم الآن من كبر وإباء، ويكشف لهم ما هو واقع منهم بعد موتهم في يوم الحساب، فتقوم بذلك الحجة عليهم قياما ما بعده قيام، ولا يبقى لهم يومئذ من عذر البتة، ولا حجة يحتجونها!

وقال تعالى: ((فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ)) [الأعراف : ٣٧] وقال جل جلاله: ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ)) [النمل : ٨٠-٨١] أي لست مسمعا سماع الهداية إلا من خلت

نفوسهم من الأهواء المانعة من الإيمان بآيات الله! فاعلم أحوال هؤلاء وخاطبهم بما يليق بهم! ثم يقول الملك في بيان ما يكون لهؤلاء يوم الحساب: ((وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ)) [النمل : ٨٣-٨٥] أي أنهم يعترفون يومئذ بظلمهم وباستحقاقهم أن ينفذ عليهم وعيد الله جل شأنه! وفي هذا من محاججتهم يوم العرض ما بينا! ثم يستنكر الله تعالى استكبارهم على آياته الباهرات وإباءهم الإقرار بها، فيقول: ((أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)) [النمل : ٨٦] وتأمل كيف أنه لم يأت في هذا المقام إلا بآية واحدة فقط، ألا وهي آية الليل والنهار وتتابعهما على مقدار ثابت ووتيرة واحدة! فالآية الواحدة من آيات الله الظاهرة وآلائه البينة تكفي كل عاقل صادق حتى يتذكر ما لربه عليه من حق!

ثم يخوفهم جل شأنه ويرهبهم من أهوال يوم الحشر فيقول: ((وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ . وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ . مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ)) [النمل : ٨٧-٨٩] فمن صح عقله وأراد الله به خيرا، فسيقع في قلبه من الخوف من تلك العاقبة الوخيمة ومن موقف ذلك اليوم العصيب، ما يكفي لحمله على النزول عن مكابرته وعن تكذيبه بالحق الجلي الظاهر الذي جاء بيانه في القرآن، والتحول إلى قبوله والتسليم به والانقياد له! فمن أين يفر الإنسان من خالقه وهو يعلم أنه منقلب إليه بعد موته لا محالة؟! هذا ما يُتوقع من ثمرة هذه الآيات ونحوها مما في كتاب الله تعالى في نفوس من أراد الله بهم خيرا! وأما من لم يرد بهم الخير فلن ترى منهم إلا كل سفسطة وكل مراء وكل إباء وكل اعتراض ((وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ)) الآية [البقرة : ٢٦]!

فالذي ابتلاهم الله به في هذا الباب وكلفهم بالإيمان به، ليس من قضايا البحث والنظر والترجيح طويلة الذيل عميقة الغور التي قد تظهر لأحدهم وتخفى على الآخر، كما يحلو للفلاسفة أن يصوروها (وتابعهم على ذلك أهل الكلام بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال)! وإنما هي من البدهيات الأولى

المركبة في الفطرة، التي لا تخفى على صبي صغير! ومع ذلك، فقد ابتلى الله فيها أمما من البشر بالزيغ العظيم والضلال البعيد، لا لخفاء الحق في نفس الأمر، ولكن لتعلق نفوس الخلق بشهوات الدنيا وبأهواء عظيمة لا يحصيها إلا الله! ولهذا فقد سبق في علم الله تعالى – وكما بينه لنا في كتابه – أن أهل الكبر من رؤوس تلك الملل الباطلة ما كانوا ليؤمنوا مهما سيق إليهم من الآيات البينات، حتى ولو رأوا الله جهرة، على الرغم من جلاء الباطل الذي هم عليه وظهور الحق في مقابله! فلا أبلغ ولا أقوم بالمطلوب من محاججة هؤلاء المجرمين المستكبرين مما جاء به القرآن في وصفهم وبيان حالهم من جهة، وفي تحديهم وفضحهم وتعجيز الطواغيت المتألهين منهم من جهة أخرى، وفي زجرهم وتسفيه أحلامهم وتوعدهم بما يكون لهم في الآخرة إن أبوا إلا الموت على ما هم عليه، وبما يلحق بهم إذن من ذل وأسف بالغ واعتراف بالزيغ والضلالة يوم لا يجدي الندم!

ولو كان هذا الكتاب من عند غير الله لما وجدت فيه شيئا من ذلك، ولما كان الخطاب فيه على ما هو عليه! بل لوجدته يخاطب هؤلاء مخاطبة الند والخصم المكافئ في المناظرة، جاريا على شروطهم هم في أنواع الأدلة العقلية ومصادر تلقي المعرفة الغيبية، وكأنما جاء ليخاطبهم في مسألة نظرية خفية بعيدة المأخذ على عموم الناس، مع كون طريقتهم هم ومنهجهم في النظر والاستدلال هو المعيار الصحيح لبناء المعرفة فيها (أيا ما كان موضوعها) لا غيره! ولكن لأن هذا كتاب رب العالمين جل في علاه، الذي يخاطب خلقه من فوق سبع سماوات، فقد جاء يذكرهم بالحق الجلي الذي جبلهم على معرفته بداهة وهم في عالم الذر، ويكشف لهم ما هو أعلم به منهم، وهم عليه شهداء وبه مقرون معترفون إن صدقوا، من موانع نفوس المشركين وحواجز قلوبهم عن قبول رسالة رسوله الذي يدعوهم لمصداق ذلك الحق الفطري المبين، ثم يبشر المؤمنين وينذر المعرضين والجاحدين والمكذبين، حتى تقوم بذلك حجته على أمة الدعوة أكمل وأتم قيام، ويحصل به المقصود من الوحي بالرسالة الخاتمة على أحسن ما يرام، من زمان التتريل وإلى يوم الدين!

تأمل كيف يكشف الرب جل في علاه تخوف المنافقين (الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر) من نزول القرآن بما يكشف ما في قلوبهم من الكفر ويفضحهم به، كما في قوله تعالى: ((يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ)) [التوبة :

٦٤]! فهم مع إبطانهم الكفر وكراهية الحق والنفور منه، يعلمون في بواطن نفوسهم أن الله مطلع على سرائرهم، وأنه قادر سبحانه على أن يكشف للناس ما حرصوا هم على إخفائه والتستر به من الكفر والزندقة، فقد سمعوا وصفه أحوالهم في القرآن كما علموا يقينا أنه لا يكون إلا من رب السماوات والأرض الذي يعلم السر وأخفى!

تأمل على سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى: ((لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ . وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ . قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ . قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ . وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ . فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ . وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ . وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)) [التوبة : ٤٤-٥٨] إلى آخر الأيات!

فتأمل البيان المفصل الدقيق لأحوال المنافقين وأعمالهم القلبية وكيف ينبئهم القرآن بما أخفوا في صدورهم مما لا يطلع عليه أحد بعد الله سواهم! فمنهم من يقول كذا وهو يضمر كذا، ومنهم من يطمع في كذا فلا يرضى إلا بكذا وكذا، ومنهم من يمكث حتى إذا ظن أنكم لا ترونه، فعل كذا

وقال كذا وكذا، إلى آخر ما يشهد القوم على أنفسهم يوم القيامة بأنه كان منهم حقا وصدقا كما وصفه القرآن، ولا يملكون إلا أن يشهدوا، وينتفع المؤمنون من بيانه في القرآن بأن ينكشف لهم ما به يحذرونهم إذا دلت قرائن الحال على نفاقهم، وما به يحذرون هم من أن يدخل النفاق إلى قلب أحدهم فلا يغني عنه شيئا ما يظهر للناس من صلاحه وحسن إسلامه، ويحبط عمله إذن من حيث لا يشعر، نسأل الله السلامة!

والقصد أن كل من تشرب قلبه بشيء من النفاق، فإن تلك الآيات تخاطبه وتخوفه من عاقبة البقاء على تلك الحال، إذ تذكره بأن الله يراه ويرى ما يُسر في قلبه وما هو أخفى مما يسر في قلبه، وأنه مهما خادع المسلمين وأوهمهم باستقامته فإن الله فاضحه ولو بعد حين! ففي ذلك من الحجة ومن معالجة العقل والنفس بما يحصل به مقصود الرسالة، ما لم تكن لتجده في هذا الكتاب لو لم يكن هو كتاب رب العالمين حقا، بل لو لم يكن هو خاتم الكتب المنزلة المهيمن عليها جميعا الظاهر إلى قيام الساعة، والحمد لله رب العالمين!

